الحبيب السالمي

حفر دافئة

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

حفردافئة

حفر دافئة / رواية عربيّة
الحبيب السالمي / مؤلّف من تونس
الطبعة العربيّة الأولى ، ١٩٩٩
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
لوحة الغلاف : كائنات ليليّة
سلفادور دالي / إسبانية
الصفّ الضوئي :
حكمت مشموشي / المؤسّسة العربيّة ـ بيروت

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

الحبيب السالمي

حفردافئة

رواية

«وقال لي في المخاطرة جزء من النجاة..»

النِفّري

تعال أيُّها الليل احتفالياً

احتفالياً ومليئاً

برغبة سرِّيَّة في البكاء

ربما لأنَّ الروح عظيمة، وصغيرة هي الحياة...

فرناندو بسوا

- 1 -

بطيء هذا الليل.

الجسد منهك، والروح مخرّقة مثقوبة مثل مرمى رصاص، ولا عزاء لي سوى قرع جرس الكنيسة المجاورة وشيء من الغبار تحت السرير وهذه المفكرة القديمة الملقاة على الطاولة.

أفيق من النوم في قلب الليل، بسبب وقع خطى متسارعة على الدرج الخشبي يعقبه تدفّق ماء مفاجيء من صنبور في إحدى الغرف المجاورة او ضجيج السكارى وآخر العائدين من السهرة. أتقلب في الفراش عدة مرات دون أن أفتح عيني، ثم أتمدّد على بطني، وأرهف السمع منتظراً دقات جرس الكنيسة لمعرفة الساعة.

الغرفة التي أُقيم فيها ضيقة قديمة. كان واضحاً انها غير نظيفة، فهناك تحت السرير الذي لا ينقطع صريره طبقة سميكة من الغبار. إلاّ ان ذلك لا يشغل بالي، فأنا لم أُحاول ابداً ان أُنبّه المغربية الشلوح كما تُقدِّم لي نفسها التي تأتي كل يوم لتنظيف الغرفة الى وجودها. كنت أقول لنفسي كلما خطر ببالي ان أفعل

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

ذلك لماذا تعقّد الأمور وتبحث عن المشاكل يا رجل.. اترك الغبار وشأنه..

الجدران المتصدعة في بعض المواضع مكسوة بورق قديم رسمت عليه نباتات وأزهار مختلفة ذات ألوان شديدة التنافر. أخضر زبرجدي، أحمر فاتح، أصفر، رمادي، برتقالي.. ألوان توحي لي دائماً بأنّ المكان كان فيما مضى فندقاً بائساً. في الواقع لا أكره هذه الألوان رغم تنافرها، فما يزعجني حقاً في هذه المساكن الشعبية هو هذا الورق الذي يكسو الجدران، فأنا أفضّلها عارية بشقوقها وبقع رطوبات وسحها وما كتبه عليها النزلاء العابرون مثلي من كلمات وعبارات بذيئة.

الأثاث يتكوّن من خرائة واطئة جداً إلى درجة اني حين أكون واقفاً أرى بوضوح كل ما تناثر على سقفها المغبر المنخور في الوسط من مسامير وبراغ صدئة. وبالقرب منها طاولة وكرسي أتجنّب الجلوس عليه خوفاً من ان ينكسر. فوق حوض المغسل المرمري المتشقق مرآة مستديرة بلا اطار يبدو من حالتها انها أقل الأشياء قدماً في الغرفة.

جرس الكنيسة يقرع مرتين: الساعة الثانية كما خمنت. أفتح عيني، وأضيء الغرفة دون ان أترك الفراش. بعد لحظات طويلة أستسلم خلالها لأحاسيس مختلفة مقترنة بصور ووقائع موغلة في القدم أتذكر الغبار فأنحني حتى أكاد ألامس الموكيت برأسي. الطبقة تبدو لي أكثر سماكة في الزاوية، لكن ذلك لا يزعجني اطلاقاً خصوصاً ان رائحة الغبار ليست كريهة. فليبق هناك، أردّد في نفسي، لعل البق وما شابهه من حشرات الليل يقتات منه.

بالقرب من السرير عُلّق على الجدار تلفزون أسود غزت

التشققات دعامته البلاستيكية الشفافة وتجعّد وتحزز خيطه المتدلي من كثرة الاستعمال. كان فوق رأسي تماماً، ويكفي ان أرفع يدي قليلاً لأمسكه. هل أُتلفن؟ أتساءل وانا أُدقّق النظر في شبكة التشققات على الدعامة الشبيهة ببيت عنكبوت. ولكن لمَن أهتف؟ مَن سيكون مستعداً للاستماع إليَّ في مثل تلك الساعة؟ ثم ماذا يمكن ان أقول له في مثل ذلك الوقت؟

مفكّرتي الصغيرة المهترئة التي أُفكّر دائماً باستبدالها بواحدة جديدة دون ان اجرؤ على ذلك تعج بالأسماء والعناوين وارقام التليفون، لكن الذين أعرفهم جيداً قليلون. عادل الطالبي. الحاج. سعاد عرس الله.. منذ زمن بعيد لم أُقابلهم. لم أستمع إلى أصواتهم ولم أنظر الى وجوههم. لم أُراقب حركات أيديهم ولم أشم روائح أجسادهم إلاّ في ما تبقّى لي منهم من صور أخذ بعضها يغيم او يتبدل. الأول عاد الى المنبع، وأصبح مهتماً بتحقيق أمنية أمّه التي تريد حفيداً يبرطع في البيت ويبول في حجرها كما يقول في واحدة من رسائله التي لم أعد أرد عليها. وسعاد التي كانت علاقتي بها أشبه بحزمة ضوء في سنواتي المعتمة انقطعت أخبارها مثلما تنقطع اخبار الكثيرين في هذه البلاد، وخرجت فجأة من حياتي تماماً كما دخلتها. اما الحاج فقد هجر المقهى الذي كان يرتاده وانعكف في حفرته كما يقول عن بيته قبل ان يعود نهائياً إلى الهوارب التي أعرفها لقربها من العلا حيث تسكن أُمّي وأُختي الوحيدة وزوجها المولع بالتنزه في جبانة «بوعرعارة» وقيادة الشاحنات الصغيرة.

الآخرون أصحاب الأسماء الباقية أغلبهم نساء متقدمات في السن او عجائز في عمر أُمّي متغنجات ما زلن يحافظن على شيء

من الجمال والأنوثة ومراهقات من الشمال نحيلات او سمينات بوجوه شاحبة ممتقعة او مكسوة ببثور المراهقة يبحثن في السفر عن حب شرقي ساحر او عشق افريقي متوحش. نساء تعرَّفت عليهن في فترات متباعدة في محطات مترو الأنفاق وهي أفضل الأماكن للحصول دون تعب كبير على قليل من الحنان والمتعة بالنسبة للقادمين مثلي من قسوة الجنوب وجفافه، وايضاً في محطات القطارات الكبرى التي أتردّد عليها حين يتفاقم احساسي بالعزلة للتفرج على وجوه المسافرين وهم متهالكون على الكراسي في انتظار مواعيد الرحيل او وهم يحملون ويجرّون حقائبهم، او يركضون على الأرصفة بحثاً عن عرباتهم، وخصوصاً للاستماع الى الصوت الأنثوي الكسول والمثير الذي يُعلن بين وقت وآخر عن رحيل القطارات ووصولها. أحياناً أخلط بين الوجوه الطالعة من الذاكرة والأسماء والأعمار والجنسيات.

أتناول المفكرة، وأشرع في تقليب صفحاتها. في البداية اقرأ الأسماء او العناوين، وانما أتأمل الخطوط. الحروف المتتابعة ملونة مختلفة الحجوم متباينة بتباين نفسيات الذين كتبوها. بعض الصفحات مليئة برسوم صغيرة أنجزتها في لحظات السهو والشرود وخلال المكالمات، حين أنتظر صوتاً أكتشف فيما بعد انه غائب او يتباطأ في التناهي الي، وحين أكون متوتراً بسبب انفعال او فرح مفاجيء. وهي تبدو بحيواناتها ذات القرون والقوائم والأجنحة العجيبة المنتشرة بين الأسماء والأرقام والعناوين أشبه برسوم فطرية او بدائية.

الصفحة في حرف النون فارغة، وفي التي تليها اسمان أحدهما لامرأة لا يمكنني ان أنساها لتميزها. الوجه المستدير

طفولي يعكس قليلاً من السذاجة وعدم التجربة والخبرة. العينان الواسعتان شديدتا السواد. في بعض الأحيان أشبِّههما في نفسي بحبتي زيتون في أوج نضجهما. والشفة العليا اللحيمة التي تفيض على السفلى وتحجب جزءاً منها حين يكون الفم مغلقاً مكسوة بزغب خفيف. تحذر الرجال الذين تشبههم بالديكة لأنهم مزهون بأنفسهم، لكنها منذ ان رأتني ابتسم لها في محطة المترو أدركت بحدسها الذي لا يخطىء أنَّني رجل من طينة مختلفة. هكذا تقول لي كلما أرادت ان تفرحني، وهو شيء يعني لها الكثير على ما يبدو. تدخّن بلذة واضحة من حركة شفتيها ولا تشرب القهوة. تحب الزلابية، التي اكتشفتها صدفة في زيارة سابقة للمدينة لكنها لا تأكل منها إلاَّ القليل لأنها حريصة على ان تظل رشيقة. تحب ايضاً أشياء اخرى كالصوف وجاك بريل وجسر الكسندر الثالث والجزء الأخير من فيلم «القيامة الآن» وأشجار الدلب في الخريف.

حرف الواو ثلاثة اسماء لنساء لا أتذكر إلاَّ وجه احداهن. طويل وعادي وغير دافىء كأنَّه قناع. حرف الراء اسماء وعناوين تملأ كل الصفحة المزينة بحيوانات عجيبة ملونة. أغلق المفكرة وأرهف السمع. الآن كل شيء هادىء في الدرج والغرف المجاورة. أنتبه وأنا أنظر الى الطاولة والكرسي انهما ليسا من خشب واحد كما كنت أعتقد، وان لونيهما مختلفان رغم تشابههما الشديد. في المرآة يتراءى لي وجهي شاحباً مثل ليمونة بدأت تجف، لكنِّي لا أهتم بذلك. ألقي نظرة على الشعر الذي يلتمع تحت الضوء، وأشرع في تأمُّل النباتات المرسومة على ورق الجدران.

وفي محاولة للانخراط في النوم أو التخلص من هذا الاحساس بالضجر الذي بدأ يتفاقم مولداً في نفسي شعوراً خفيفاً بالكآبة أتناول المفكرة، وأفتحها من جديد، ثم أستسلم للقراءة. أبدأ من الوسط، ولا أهتم بكل صفحة. أقلب الأوراق المهترئة بحذر متنقلاً بين أسماء الذين أحببتهم، كما لو أنّي أحتمي بهم، أقول في نفسي، مَن هذا الليل البطيء المخاتل.

- 2 -

حرف الطاء. عادل الطالبي. في أغلب الأحيان تحضر صورته في ذهني حين اغتسل في الصباح، وتحديداً بعد ان أفتح الصنبور، وانحني على حوض المغسل لأملأ يدي بالماء. في البداية أرى شاربه الذي يصر على عدم حلقه رغم انه لا يناسب وجهه الطويل، ثم شفته السفلى الممتلئة التي كانت توحي لي في فترة ما بأنه رجل شهواني. لا أدري كيف تولّد لدي هذا الانطباع للمرة الأولى، فأنا لا أذكر أنّني شاهدته ذات مرة برفقة امرأة، أو لاحظت خلال الجلسات التي كانت تجمعنا في المقهى انه يتطلع الى النساء بشكل يلفت الانتباه.

ألتقي عادل عصر كل خميس في مقهى تونسي صغير يقع في نهاية شارع خلفي هادىء لا تعبره السيارات إلاّ نادراً لضيقه. يبدو المكان من الخارج شبه معتم لأنّ صاحبه لا يسمح في النهار حتى ولو كان الجو مكفهراً إلاّ بالضروري من الضوء توفيراً وتحايلاً على النفقات. وهو لا يلفت انتباه العابرين الذين يمرون امامه، بل ان بعضهم لا ينتبه أصلاً الى وجوده، فواجهته لا تشبه واجهات المقاهي. مقهى شعبي حقاً، يختلف حتى عن المقاهي

التونسية الأخرى. لا يُباع فيه لا الخمر ولا البيرة ولا البوخة. ولكن يمكنك ان تطلب فيه قهوة اشطار او شيشة او شاياً أحمر لونه ضارب الى السواد أُعِدَّ كما في الأرياف على الكانون بدون ان يتطلع اليك النادل في استغراب. وأغلب رواده مهاجرون كهول ومتقدمون في السن ذوو أصول ريفية لا يتوقفون طوال الوقت الذي يقضونه في المقهى عن تلمس جباههم ودعك وجوههم بأصابع هزيلة والتطلع حولهم بعيون تعكس مزيجاً من الحذر والارتباك.

لا أدري كيف اكتشف عادل قهوة المولدي كما يسمّي الجميع المقهى بالرغم من ان صاحبه شخص آخر كما علمت فيما بعد، لكنه هو الذي قادني إليه للمرة الأولى. ذات يوم خابرني باكراً. لما رفعت السماعة تناهى إليّ صوته المتعب. عثرت على مقهى تونسي اصيل.. انا متأكّد انه سيعجبك مثلما أعجبني.. موقعه يناسبك ويناسبني.. ربما لهذا السبب تحضر صورة عادل في ذهني غالباً حين اغتسل في الصباح، فقد انتابني خوف شديد وأنا أسرع الى السمّاعة اذ انني لم أكن أتوقع اطلاقاً ان يرن الهاتف في تلك اللحظات الفاصلة بين اليقظة والاغتسال. لم يبد لي المقهى جميلاً او نظيفاً وهو ما يلفت انتباهي عادة في مثل هذه الأمكنة، لكني وجدته اصيلاً حقاً. بل أستطيع ان أقول بدون مبالغة أنّني أحببته فوراً.

أصِل الى المقهى قبل العصر بوقت قليل. أفعل ذلك عمداً لكي أتمكن من النظر إلى وجوه رواد المقهى بهدوء قبل مجيء عادل. في أغلب الأحيان أجلس إلى طاولة توجد بالقرب من المدخل في مكان أستطيع منه ان أُشاهد كل المقهى وجزءاً كبيراً

من الشارع. في البداية كان حضوري يحدث نوعاً من الاضطراب. حالما أتجاوز العتبة المرتفعة قليلاً وأدفع الباب وأدلف الى المكان تخف الحركة ويلف المقهى صمت لا يستمر طويلاً لحسن الحظ. يتحرك المولدي خلف الكونتوار وقد ارتسم على شفتيه ما يشبه الابتسامة، ويتقدّم منّي النادل العجوز البشير ببطء وحذر كما لو انه يخشى ان يضايقني باستعداده المبكر لخدمتي، وتمتد أعناق الرواد صوب المدخل بوجوه تعكس رغبة واضحة في متابعة المشهد. إلاّ ان هذا الاضطراب لا يولّد فيّ أي احساس بالذنب كما يحدث لي عادة حين أدرك انّ ما أقوم به يضايق الناس حولي، فقد كنت أحس احساساً غامضاً بأنّ كل ما يحدث في المقهى حين أدخله ليس سوى تعبير خفي وملتبس عن نوع من الارتياح بل والفرح، فكأنّ حضوري انا الشاب المثقف كما يقولون اذ انني كنت أحمل باستمرار كتباً ومجلات في مقهى صغير لا يتردّد عليه سوى مهاجرين كهول ومتقدمين في السن يمنح المكان قيمة ما.

بعد أيام قليلة تلاشى هذا الاضطراب، وحلّ محله هدوء لم يقض على ذلك الاحساس الغامض الذي ينتابني. عندما يراني المولدي يرفع يده محيياً، ويستمر في عمله. يعد القهوة او يغسل الكؤوس ويلمعها، أو يعمّر براد الشاي او يرتّب قناني الفانتا والكوكاكولا على رف صغير تحيط به صور ملونة ضخمة لواحات وغابات نخيل ومواقع اثرية مشهورة وفرق كرة قدم ومطربين ومطربات وزعماء نقابيين وسياسيين قدماء وحتى لبعض مرتّلي القرآن.

أمّا البشير الذي يسميه أغلب رواد المقهى المعتمد تندراً

لإصراره على ارتداء قميص أبيض وربطة عنق أمحت خطوطها المائلة من كثرة الاستعمال فهو لم يغير كثيراً سلوكه. حالما أجلس يدنو من الطاولة ببطء وحذر. يقف أمامي تماماً، ويمد عنقه قليلاً للاستماع إلى ما سأقوله له. حيث أنتهي من الكلام ينحني انحناءة خفيفة، ثم يستدير بسرعة مفاجئة، ويتوجه الى الكونتوار. أحياناً أشعر نحوه بالشفقة فهو في سن متقدمة. بالرغم من ان رواد المقهى قليلون في أغلب الأحيان فقد لاحظت ان التنقل بين الطاولات يسبب له ارهاقاً يبدو على وجهه وفي حركاته في نهاية المساء. ويرافق هذا الاحساس بالشفقة نوع من الانزعاج، فقد كنت أشعر بحرج من ان يقوم على خدمتي رجل في مثل تلك السن.

أعرف رواد المقهى واحداً واحداً. كانوا موزعين على مجموعات صغيرة يتكون أغلبها من ثلاثة أو أربعة أفراد. عندما أصِل إلى المقهى أجدهم هناك باستثناء اثنين يصلان دائماً معاً بعد حوالى عشرين دقيقة. كان كثيرون منهم لا يشربون سوى الشاي والقهوة أمَّا الآخرون فإنَّهم يتناولون الحليب وشراب الرمان والنعناع والليمون والفانتا. أذكر أنَّ أول ما لفت انتباهي عندما بدأت أهتم بهم هو انهم يتكلمون قليلاً وبأصوات خفيضة نسبياً حتى انه خُيِّل لي في البداية انهم لا يعرفون بعضهم بعض.

وجوههم تغريني وتستهويني بألوانها وملامحها وبما تعكسه من أحاسيس ورغبات. طبعاً، كنت أنظر اليها خلسة. أميل قليلاً مطأطئاً رأسي، وأستدير بوجهي الى المدخل، ثم أُحرِّك عيني في اتجاههم من دون أن أُغيّر وضع رأسي كي لا أثير الانتباه، وأشرع في النظر. كنت متأكداً من ان المسافة التي تفصلني عنهم

لا تمكنهم اطلاقاً من التنبّه لحركة عيني. أحياناً أُقابلهم تماماً، وأنحني على كتاب متظاهراً بمطالعته. وبين وقت وآخر أباعد ما بين أصابع يدي التي أسند اليها جبيني، وأُلقي عليهم نظرات سريعة.

في هذا المقهى تعرَّفت على الحاج. منذ المرة الأولى التي أخذت أتردّد فيها على المكان لاحظته فالعين لا يمكن ان تخطئه. إلاَّ ان اهتمامي به لم يبدأ إلاَّ فيما بعد. وجهه متميز حقاً، فكل ما فيه يثير اهتمامي. العرض الذي يبدو لي متناسباً تماماً مع الضمور وطول العنق وحتى القامة كلها. اللون الأسمر الذي لا يحجب شحوباً ناتجاً عن تقدّم في السن. العينان السوداوان الضيقتان شديدتا الالتماع. الحاجبان اللذان يكادان يلتقيان. الأنف بمنخريه المستطيلين اللذين ينبت فيهما شعر كثيف يمكن مشاهدته من بعيد. الذقن الصغيرة التي تحمل اثر ندبة قديمة.

كنت برفقة عادل حين كلّمني الحاج للمرة الأولى. لم أفهم في البداية لماذا فضَّلني عليه في ذلك اليوم لكي أُترجم له واحدة من الأوراق الكثيرة التي يستلمها بانتظام من مكاتب وصناديق التقاعد والضمان الاجتماعي، ولما توطَّدت علاقتي به أدركت أنه لا يرتاح لعادل بل ويحذره لأسباب أجهلها إلى حد الآن.

لم أنتبه اليه وهو ينهض من مكانه المعتاد القريب من الكونتوار، ثم يدنو من طاولتنا. لعلني كنت أُتابع حركة الشارع مثلما كنت أفعل حين أكف عن التطلع الى وجوه هؤلاء المغتربين الذين كنت سعيداً حقاً باكتشافهم، او عندما امل الاستماع الى عادل. فجأة التفت الى الداخل فإذا بالحاج منتصب أمامي يتفحصني بعينين زادت فيهما حدة الالتماع.

كان واضحاً أنَّه أتى خصيصاً لي. استولى عليّ للحظة قصيرة شيء من الاضطراب اذ انني فوجئت حقاً بمجيئه. ذلك الوجه الاسر الذي كنت أتأمله خلسة، ذلك الوجه الذي أوحى لي بحكايات عديدة واستحوذ على مخيلتي الى درجة أنَّني تصوّرت حياة كاملة لصاحبه، ذلك الوجه الذي تفصلني عنه دائماً مسافة تقدّر بعدة خطوات يصبح فجأة قريباً جداً منّي حتى انه كان باستطاعتي ان أرى أدق تفاصيله.

لم يسحب الكرسي ويجلس بجانبي كما يفعل عادة رواد المقهى في مثل هذه المواقف، وانما بقي واقفاً بعدما طلب مني السماح له بالجلوس الى ان وافقت على ذلك باشارة بيدي. وفي اللحظة التي استقر فيها بجسده على الكرسي أدركت بحدسي ان علاقة حقيقية ستنشأ بيني وبين ذلك الرجل رغم فارق السن.

لما انتهيت من ترجمة ورقته دعا لي بطول العمر وبأشياء اخرى كثيرة الى درجة انه أحرجني خصوصاً ان دعاءه استغرق لحظة بدت لي طويلة بحضور عادل الذي ظهر على وجهه اثر الانزعاج والتبرم. إلاَّ أنَّه لم يعد كما كنت أتوقع الى مكانه.

تحرَّك قليلاً، ثم استدار برأسه الى الشارع. بين وقت وآخر يوجّه إليّ نظرات قصيرة لكنها دقيقة ومركزة. كان واضحاً انه يهتم في كل مرة بملمح من ملامح وجهي. في تلك اللحظة أخذت أتساءل عمَّا اذا كان الحاج يراقبني هو ايضاً منذ زمن بعيد، وعمَّا اذا كان وجهي يجتذبه لسبب لا أعرفه.

أفضى بي هذا التساؤل الذي ولد في نفسي قليلاً من التوتر الى تساؤل آخر زاد في توتري، وهو هل افتعل الحاج مسألة الترجمة لكي يتصل بي ويمد بيني وبينه جسراً؟ رغم كل ذلك كنت

في أعماقي فرحاً بمجيء الحاج. أمَّا حدسي بأنَّ علاقة عميقة ستنشأ بيننا فهو لم يتلاش او يتناقص، بل استطيع ان أقول ان تلك التساؤلات رسخته في النهاية.

انحنيت في اتجاه عادل وأخذت أتطلع اليه لحثّه على الكلام في محاولة لإعادة الجلسة الى حالتها الطبيعية. عندئذ نهض الحاج دافعاً الكرسي بهدوء الى الخلف. ابتسم وهو يرفع يده محيياً. وقبل ان يعود الى طاولته قال وهو يركز نظره على وجهي: ابني يشبهك قليلاً.. فعل ذلك بنبرة مَن يقول شيئاً لا يود في أعماقه ان يقوله..

منذ ذلك الوقت صرت التقي الحاج بشكل شبه منتظم، في المقهى او في بيته حيث تعرَّفت على زوجته. وخلافاً لما كنت أتصور فقد كانا يحبان الحديث، وان كانا لا يفعلان ذلك مع أي كان. كانا مثل أغلب المهاجرين الذين يلجأون إلى الكلام كما لو انهم يحتمون به من زمن لا يسيطرون عليه ومن حياة لا يتحكّمون فيها. يتحدثون عن تغريبتهم الكبرى، عمَّا حدث لهم في السفر كما في الاقامة. يتحدثون كما لو انهم يريدون ان يتشبثوا بما بقي لهم. يتحدثون لكي لا ينسوا، لكي لا تضيع تجاربهم وأوجاعهم ومخاطراتهم مثلما ضاعت أيامهم، وتنفلت من بين أيديهم مثل حبات الزئبق.

كلما تعمّقت علاقتنا ازداد الحاج انفتاحاً عليّ. يحدّثني عن كل شيء، وحتى عن أمور تبدو لي حميمية. أحياناً أتساءل عما اذا كان يفعل ذلك بحثاً عمَّا كان يحلم بأن يجده من تواصل مع ابنه او عن متعة من نوع خاص لا يشعر بها مع الحاجة او غيرها مثلما يشعر بها معي.

حدَّثني كثيراً حتى انني صرت أخلط فيما بعد بين الواقع والخيال خصوصاً في الحالات التي أكون فيها بين اليقظة والنوم، فلا أدري أحياناً أين ينتهي الواقع وأين يبتدىء الخيال. لا أعرف الحدود الفاصلة بين ما رواه لي وبين ما كنت أتخيله عنه وأنا أُراقب وجهه من بعيد في المقهى قبل ان أُفاجأ بمجيئه.

كانت قد مرَّت أعوام كثيرة على الحاج في هذا البلد حين تعرَّفت عليه. كان يُقيم في شقة صغيرة يسمّيها «حفرة» بإحدى عمارات السوناكوترا. زوجته للآخضرية التي كانت منبهرة بالخارج لم تعد تتحمل الغربة والعزلة وبرد الشتاء ونظرات الرجال خصوصاً بعد ان أدَّت فريضة الحج فقررت بعد تعرّفي على الحاج بأشهر قليلة العودة الى البلاد لتموت راضية مرضية هناك او في دار الاسلام كما صارت تقول منذ ان عادت من الحج. وابنته التي لم تتجاوز عامها الخامس ماتت بين يديه ذات ظهيرة في عز الصيف، في واحد من هذه الأعوام القليلة التي لم يعد فيها الى الهوارب.

كانت تلعب في مكان خال وراء الشارع الذي تقع فيه العمارة. بين الفينة والأخرى تطلق ما يشبه الصرخة تعبيراً عن فرح ما. لكن العطار الجربي العجوز المشهور بطيبته في كل الحي والذي يُقيم بمفرده في العمارة المقابلة لعمارة السوناكوترا لا يحتمل الصراخ الذي يحرمه من التمتُّع بقيلولة يعتبرها وهو في تلك السن ضرورية، لذلك فتح فجأة نافذته، وأخذ يهدّدها وهو يصوّب نحوها مسدساً من البلاستيك لمجرد تخويفها مثلما يفعل مع كل الأطفال الذين يزعجونه بضجيجهم. هكذا قال للحاج الذي صدّقه فوراً.

أطلقت الطفلة ساقيها للريح صوب الشارع. ومن شدّة الخوف لم تلتفت حولها قبل ان تعبره كما تفعل عادة. ولما بلغت منتصفه صدمتها سيارة كانت تمر بسرعة جنونية ملقية بجسدها الصغير على جانب الشارع، رأسها ملتحم بالزفت الساخن ورجلاها منغرستان في الحصى المكوّم على الرصيف.

أمَّا ابنه الذي يشبهه كثيراً كما يؤكّد له الجميع، ابنه الذي عانى كثيراً من أجله، ابنه الذي دلَّله ولم يبخل عليه بأي شيء فقد خيَّب ظنه. لما بلغ سن المراهقة بدأ يتخلّى عن الدراسة التي لم يكن ابداً متحمساً لها، ثم أخذ يهجر البيت منذ ان تعلَّقت به امرأة أجنبية لا دين لها ولا أصل ولا حتى جمال. برتغالية تكبره ببضعة أعوام كانت معه في نفس المدرسة، وصارت تشتغل بائعة في جناح الأحذية على ما يبدو في متجر كبير.

إلاَّ أنَّ ما أغضب الحاج حقاً وجعله يخرج عن طوره هو ان ابنه صار يُعاشر في الحرام تلك البرتغالية بين وقت وآخر، ويقيم في بيتها تماماً كما يُقيم الزوج مع زوجته. ورافقت ذلك شائعات وأخبار عجيبة لا يريد الحاج والحاجة ان يصدقاها، وأغرب هذه الشائعات وأكثرها ايلاماً لهما واحدة تقول ان ابنه صار لا يتورع عن أكل لحم الخنزير.

منذ ذلك الوقت أصبح الحاج يمتنع عن ذكر اسمه. وكلما اضطر الى الحديث عنه امام الحاجة او اصدقائه المقرّبين يشير اليه بعبارة «هاك العظمة الحارمة» أو بـ «هاك الهامل» حين لا يكون مزاجه عكراً..

قرَّر الحاج ان يبقى في المهجر في انتظار التقاعد الذي لم تعد تفصله عنه سوى بضعة أعوام. منذ وقت طويل لم يشتغل،

وبعد أشهر قليلة يكتمل عامه السابع في البطالة. في مطلع كل شهر يتقاضى مبلغاً مالياً من صناديق الضمان الاجتماعي، فيرسل نصفه إلى الهوارب اذ لم يعد بإمكانه ان يتراجع الآن، فجدران الفيلا التي يبنيها في القرية قد ارتفعت. وبعد أشهر، وفي أقصى تقدير عام واحد، ستكتمل أكبر وأجمل فيلا في الهوارب، ومَن يدري ربما في كل المنطقة.

- 3 -

أتطلع إلى السقف وانا أضغط بصدري على الوسادة. أتساءل عمَّا اذا كان جرس الكنيسة قد دقّ من جديد. بعد لحظات طويلة أتقلب خلالها على الفراش أعود الى الوضع السابق، ثم أنحني على المفكرة، وأُمرِّر ببطء أصابعي على الورقة التي كتب عليها عادل الطالبي اسمه. يتبدى لي وجهه الضامر ثم شاربه الذي يصر على عدم حلقه رغم انه لا يناسب شكل الوجه، ثم تلك الشفة السفلى الثقيلة.

يحيِّيني دائماً بطريقة تبدو لي غير عادية بل ومتكلفة الى حد ما. حالما يدلف الى المقهى ترتسم على شفتيه ابتسامة تزداد اتساعاً كلما دنا من طاولتي. وقبل ان يجلس يمد نحوي ذراعاً مستقيمة، ويشد على يدي بقوة، ثم يسألني بصوت مرتفع واضح عن أحوالي وهو يتفرس في وجهي كأنَّه لم يقابلني منذ أعوام كثيرة. أرد على تحيته بشيء من البرودة اذ انني غالباً ما أكون منزعجاً انزعاجاً خفيفاً في مثل ذلك الوقت، لا لأنَّني لا أرغب في لقائه، وانما لأن مجيئه يباغتني دائماً، ويضع حداً لعملية تأمل وجوه المهاجرين التي كنت أجد فيها متعة ما. يسحب الكرسي

بحركة سريعة محدثاً ضجيجاً يثير انتباه المولدي الذي يمد عنقه في اتجاهنا ثم ينهمك من جديد في عمله. وبعد ان يتهالك عليه، يصمت برهة وهو يفرك أصابعه التي يضع في احداها خاتماً من هذا النوع الذي يشتريه السياح في الأسواق الشعبية، ثم يشرع في الكلام.

كان يشتغل حارساً ليلياً لفندق صغير يقع في احد الأحياء المتاخمة لضاحية الجنوب. لم أنسَ ذلك بالرغم من انه كان يحدّثني باستمرار عن مهن مارسها قبل تعرّفي عليه او في بعض العطل المدرسية وحتى اثناء اجازته السنوية. ربما لهذا السبب كان يفضّل ألاّ نلتقي في الصباح، وانما بداية من العصر.

لم أنسَ ايضاً انه لم ينقطع عن الدراسة، إلاّ أنّني لا أدري أي مادة كان يدرس اذ كان يسجّل كل عام في شعبة مختلفة. ويبدو انه يفعل ذلك احياناً لمجرد الحصول على ما يحتاجه من الأوراق الرسمية. ولا أزال أذكر اسم الحي الذي كان يستأجر فيه من يهودي من اصل تونسي غرفة واسعة.

الآن أدرك، وأنا أتأمل اسمه المكتوب بحبر ازرق واضح الحروف يزداد جمالاً كلّما أمعنت فيه النظر انه، باستثناء الحاج، الرجل الوحيد من بين الذين سجلوا أسماءهم في المفكرة الذي أستطيع ان أقول عنه انني أعرفه حقاً.

تعرّفت على عادل في طائرة على ارتفاع 33 ألف قدم. ايرباص A 300. باريس ـ تونس. رحلة الظهيرة اليومية. كانت أول طائرة من هذا الموديل تمتلكها شركة الخطوط التونسية. في ذلك اليوم نشرت كل الصحف التي وزعتها علينا مضيفات ارتسم على شفاههن المطلية بالأحمر ما هو أقرب الى التكشيرة منه الى الابتسامة اعلاناً

بصفحة كاملة تدعو فيه الشركة ركاب الطائرات وجميع التونسيين الى التباهي بما وفرته لهم. وفيما كنت أحاول تذكر اعلان مشابه قرأته قبل أيام قليلة في احدى الصحف الفرنسية أحسست بعادل الطالبي يميل عليّ، ويقول بالفرنسية وهو يشير باصبعه التي تحمل الخاتم الى الاعلان في جريدة كنت أتصفحها: يا له من حدث! ينبغي ان نبعث برسالة شكر جماعية الى شركة الخطوط... أدركت فوراً انه يسخر، إلاّ أنّني لم أفهم إلاّ فيما بعد ان ما قاله يتعلق بذلك الاعلان لما نظرت اليه مبتسماً لاحظت انه جر جسده الى النافذة التي كانت على يمينه وراح ينظر بشرود الى ندف السحاب التي كانت تخترقها الطائرة. فكّرت طويلاً في ما ينبغي ان أقوله له، فقد شعرت ان صمتي وعدم تجاوبي الفوري مع ما قاله قد ولدا في نفسه ما يشبه الاحساس بالاهانة. ولم اخطىء في حدسي، فقد اكتشفت بعد ثلاث أو أربع جلسات انه حساس.

بعد لحظات طويلة تراجع الى الوراء، واستدار قليلاً برأسه نحوي. انتهزت تلك الفرصة التي لم انتظرها اطلاقاً فانحنيت عليه وقلت بصوت مرتفع كي يسمعني جيداً:

ـ الحدث يستحق فعلاً رسالة شكر الى شركة الخطوط التونسية..

حدجني بنظرة باردة كأنّما بوغت بما قلته. أضفت مشيراً بيدي الى الاعلان في الجريدة التي لا تزال مفتوحة على ركبتي بصوت أكثر ارتفاعاً:

ـ ينبغي ان نبعث بنسخة من الرسالة الى الحكومة..

اندفع الى الأمام، وراح يقهقه. التفت اليه بعض الركاب دفعة واحدة، ثم عادوا الى جرائدهم وأحاديثهم. ولما نظر اليّ

وهو لا يزال يقهقه أخذت أضحك، ثم قلت في نفسي وانا أُبادله النظر: «يا الالهي.. أي غبي هذا الذي ساقته إليّ الأقدار ليجلس بجانبي في طائرة تطير على ارتفاع 33 ألف قدم.. يقهقه الى هذا الحد بسبب مزحة عادية جداً، بل أعترف انها ثقيلة؟». ألقى برأسه على مسند المقعد، ثم كفَّ عن الضحك، وبدا يُداعب أنفه. كانت تلك هي المرة الأولى التي أُلاحظ فيها ان شاربه لا يناسب شكل وجهه. بدت لي تلك الملاحظة تافهة في مثل ذلك الوقت وخصوصاً في مثل ذلك المكان، فعدتُ الى الجريدة وشرعت في تقليب صفحاتها ببطء متأملاً بين وقت وآخر صور وزراء ومطربات ولاعبي كرة قدم.

بعد ان تناولنا ما وزعته علينا المضيفات من طعام ومشروبات تحدثنا قليلاً بدون حماس في موضوعات متنوعة انطلاقاً من عناوين مختلفة في الجرائد المكدسة امامنا كارتفاع عدد السياح في تونس وغلاء المعيشة وتحوُّل قلب العاصمة الى ما يشبه السوق الشعبي بعد ان غزا أغلب شوارعها حشد من الباعة الجوّالين وعدد هائل من بسطات السلع، وحلّت أصوات الباعة والأغاني الشعبية وموسيقى المزود والطبلة والزكرة محل أغاني الهادي الجويني واسمهان وفيروز.

عندما شرعت الطائرة في الهبوط انحنى على نافذته، اما انا فقد انطويت على نفسي. نزلنا من الطائرة معاً، وركبنا نفس الحافلة التي حملتنا إلى مبنى المطار، ثم انتظمنا في نفس الصف أمام حاجز البوليس للاستظهار بالجوازات. كنا في مقدمة الصف، وكان يفصل بيننا رجلان. لما عبرت الحاجز لم اشأ ان أُغادر المطار دون ان اودّعه. استندت الى أحد الجدران، وأخذت أتطلع الى حاجز البوليس. في تلك اللحظة شاهدت ما

لم أكن أتوقعه اطلاقاً. رأيت عادل الطالبي بين شرطيين يدفعانه وهما يمسكان بذراعيه ثم يقودانه الى مكتب خلف الحاجز. وكان شرطي ثالث يتبعهم وهو يحمل حقيبته الصغيرة وكيسه البلاستكي.

لولا هذه الحادثة لاختفى عادل الطالبي بسرعة من حياتي، ولربما نسيت أيضاً ذلك اللقاء القصير الذي جمعنا ذات يوم في طائرة ايرباص A 300 على ارتفاع 33 ألف قدم. نعم، انا واثق تماماً من ذلك، اذ ان تلك الحادثة تملكت ذهني لوقت طويل. وكنت كلما فكّرت فيها ازددت حيرة، والأخطر من ذلك تفاقم خوفي من ان يحدث لي شي شبيه بما شاهدت اذ كنت متأكداً من أن رجال الشرطة الذين كانوا يراقبون بعيون حذرة الركاب أمام مدخل المطار قد انتبهوا إلى ان الطالبي يعرفني. ثم، مَن يدري مَن هو هذا الطالبي؟

طوال الوقت الذي أمضيته في انتظار حقائبي حاولت ان أستعيد كل ما دار بيننا من حديث بحثاً عمَّا يساعدني على فهم ما حدث. تذكرت القهقهة التي أطلقها عندما اقترحت توجيه نسخة من رسالة الشكر الى الحكومة. بدا لي انها تمتلك دلالة ما، بل وتساءلت عمَّا اذا كانت هناك علاقة بينها وبين ايقافه الذي فاجأني حقاً.

في بهو المطار، بينما كانت أُمّي التي أصرّت على المجيء لاستقبالي رغم تدهور حالتها الصحية بعد موت أبي تمسك بذراعي مردِّدة بين وقت وآخر «لقد قبضت عليك الآن.. لن أتركك تعود هذه المرة»، وبينما كانت اختي الوحيدة وزوجها يحملان حقائبي وهما يتطلعان الى ملابسي، ثم يضعانها في مؤخّرة شاحنتهما البيجو 404 التي كانت في فترة ما أجمل شاحنة في قرية العلا كان السؤال يلاحقني. مَن يكون هذا العادل الطالبي؟

كانت أُمّي فرحة وسعيدة بزيارتي، فهي لم ترني منذ سبعة أعوام. نعم، سبعة أعوام كاملة لم أشعر خلالها بأية رغبة في الذهاب الى هناك حتى عندما بلغني نبأ وفاة أبي، لا لأنّني لا أحب أُمّي واختي الوحيدة، وهما كل ما تبقّى لي من عائلة، وانما لأنَّ حالتي النفسية كانت طوال تلك الأعوام السبعة سيئة. كنت مضطرباً حائراً لا أعرف ماذا أريد من الحياة وماذا يجب ان أفعل. وكان يرافق كل ذلك احساس دائم بالفشل والعجز. أذكر انه لما بلغني نبأ وفاة أبي انقطعت عن الكلام والطعام لمدة يومين كاملين قضيت جزءاً كبيراً منهما مستلقياً على ظهري على هذا الفراش في هذه الغرفة استعيد أحداثاً من طفولتي في العلا او انظر الى النباتات ذات الألوان المتنافرة المرسومة على الورق الذي يكسو الجدران. وفي اليوم الثالث غادرت الغرفة، وتوجّهت الى حديقة الليكسمبورغ. قمت بجولة طويلة متأملاً التماثيل والأشجار الضخمة، ثم تهالكت على مقعد قرب السياج الحديدي المرتفع. وحالما تراءت لي صورة أبي انخرطت في بكاء طويل لم أكف عنه إلاّ عندما انتبهت، في التفاتة عابرة الى اليسار، ان العجوز ذات القبعة البيضاء والحذاء، الأحمر الملمع التي كانت تجلس على المقعد المجاور تنظر إليّ هي وكلبها القصير المجعد الوبر بانتباه يخالطه شيء من الحيرة.

في الصباح، ما ان أفتح عيني مستيقظاً من نوم مضطرب ومتقطع حتى تسرع لي أُمّي لتقدّم لي فطوراً تبذل جهداً هائلاً في اعداده. أحياناً أتذكر رسائلها التي أهملتها في تلك الأعوام السوداء فينتابني احساس بالذنب والاحتقار لنفسي ويعتصرني ألم حاد. أقول لها: «لا تتعبي نفسك يا أمي.. اتركي هذا العسل والبيض لك..». احياناً اضيف: «وهذه الفراريج.. لماذا تصرّين

على ذبحها؟.. انها فراريجك يا أُمّي.. بيعيها اذا أردت.. واشتري بثمنها ملابس جديدة لك ولابنتك اذا شئت..». كنت أفعل ذلك بصوت واضح ومرتفع، فقد كنت أخشى ألاّ تسمعني وهي في تلك السن المتقدمة وخصوصاً بعد ان تدهورت حالتها الصحية. ولكني كنت كمَن يبول في الرمل، فهي تزداد اقتراباً منّي مبتسمة، ثم تقول وهي تمسك بذراعي: «لن أتركك تعود هذه المرة.. لن أتركك تعود هذه المرة..».

بعد وقت قصير تأتي اختي الوحيدة التي تقيم في بيت قريب من بيتنا، وتُبدي استعدادها للقيام بكل ما يمكن القيام به. تسخن لي ماء اذا أردت ان استحم، وتغسل كل ملابسي، ثم تكويها بمكواتها التي تشتغل بالفحم، وتنظّف الغرفة وترتبها، وتعد لي أطباقاً يشتهيها عادة العائدون من الغربة كالملوخية واللكلوكة والرفيسة. وفي الظهيرة يجيء زوج أختي حاملاً بطيخة كبيرة وعلبة راحة حلقوم وعلبة حلوى شامية باللوز. ويقترح عليّ جولة طويلة تبدّد ما لاحظه على وجهي وفي حركاتي من ضيق وكآبة. «تعال، نذهب الى التلة.. هل تذكرها؟ هناك غدير وهواء صاف ونباتات متنوعة وأشجار دفلى كثيرة.. سنركب الشاحنة، فهناك الآن طريق رملي تسلكه السيارات والشاحنات بسهولة.. او تعال نذهب الى جبانة بوعرعارة لنتفرج على القبور.. الجبانة تغيّرت كثيراً وامتلأت بالقبور.. انا متأكّد انها ستعجبك الآن.. سأدلك على قبور كل الذين ماتوا خلال غيابك الطويل..».

لم يخل بيتنا طوال الاسبوع الأول من الزوار. يأتون في كل الأوقات، ويدخلون الغرف بحثاً عنّي. وحين أكون نائماً ينحنون عليّ ويحركون رأسي وذراعي لكي أستيقظ. الجيران غير

المتخاصمين لا مع أمي ولا مع أختي ولا مع زوجها. ثم الأقرباء الذين يقيمون في القرية، الأخوال والخالات والأعمام والعمات وأبناؤهم وبناتهم وأحفادهم الذين لا أعرف أغلبهم. ثم الأقرباء البعيدون الذين يأتون من القرى المجاورة على حمير وبغال محملة بأكياس لوز وقوارير عسل وسمن ودجاج وأرانب وجزات صوف لكي تنسج لي منها أمي واختي برنساً للشتاء المقبل. يجلسون حولي ويردّدون تلك العبارة التي لم أسمعها منذ سنوات عديدة «الحي يرجع». بعضهم يقسم بأنّه لم يصدق الخبر، وظلَّ يكذبه الى ان شاهدني بعينيه امامه «سالم ولد عثمان عاد من فرنسا؟.. غير ممكن.. لا أحد يصدّق ذلك.. الخبر كذب في كذب..». والبعض الآخر يؤكّد انه يئس من ان أعود في يوم ما ونسيني تماماً اذ كان يعتقد أنّني مت او اختفيت نهائياً او غيّرت ديني وملتي..

وبعدما يهنّؤن أمي واختي وزوجها ويحمدون الله على أنّني عدتُ سالماً يتبارون في رواية ما يعرفونه عنّي من حكايات حين كنت طفلاً. أحدهم يروي كيف كنت أُبوّل على يديه كلما حملني وآخر يتباهى بأنّه كان يمسح برازي في فترة كان يقيم فيها معنا. ويذكّرني ثالث بأن أسناني تأخرت في البروز وانني كنت في أغلب الأوقات بدون سروال، وانني كنت أُبوّل في فراشي ليلاً ولم انقطع عن ذلك إلاّ عندما صرت رجلاً أي في الخامسة من عمري..

كل ذلك لم ينسني حادثة المطار ولم يساعدني على التخلّص من ذلك السؤال الذي استحوذ على ذهني منذ ان شاهدت الشرطيين يدفعان عادل الطالبي ويقودانه الى احد

المكاتب. ذات ليلة رأيت في الحلم كل الحادثة بتفاصيلها، ولكن بدلاً من ان يقودانه الى مكتب خلف حاجز البوليس حملاه الى ما يشبه الخيمة. نعم، شيء يشبه الخيمة نصب تماماً في مكان المكتب. كان باستطاعتي ان أرى بوضوح ما يحدث داخله. ركله الشرطيان ركلات خفيفة على مؤخرته قبل ان ينصرفا وهما يبتسمان ابتسامة تنم عن الرضى بما فعلاه. تقدمت منه امرأتان بدا لي من ملامحهما انهما عربيتان، وعلى الأرجح مصريتان اذ ان جمالهما هو من هذا النوع السائد في المسلسلات المصرية. احداهما تمسك بناي والأخرى بعود. اجلستاه على كرسي بمسند مرتفع، ثم جلستا بدورهما على بساط وعزفتا لحناً ذكّرني بأغنية «أهواك واتمنى لو أنساك..». كان هو يصغي بانتباه فاجأني بين وقت وآخر يحرك قدميه او يضع ساقاً على ساق أو يشبك أصابع يديه. وفي لحظة ما حدث شيء غريب. أخذت ملامح وجهه تتغير. وشيئاً فشيئاً اختفى وجه عادل الطالبي اذ ان شكل الجسد لم يتبدل، والملابس ظلت كما هي، وحلّ محله وجه زوج اختي الذي يريد ان أرافقه الى جبانة بوعرعارة لمشاهدة قبور كل الذين ماتوا خلال غيابي الطويل..

لا أدري لماذا رويت الحلم في الصباح لأختي التي جاءت كعادتها لتعرض عليّ بشيء من الالحاح كل ما يمكن ان تقدمه لي من خدمات. هل هي محاولة للتخفيف من وطأته ورغبة دفينة ولا واعية في افشاء سر ثقيل موجع أم هو احساس مبهم بأنّ ما رأيته في الحلم خصوصاً في جزئه الأخير يهمها بشكل ما اذ ماذا يعني ان يحل وجه زوجها الذي تحبه، على ما يبدو، محل رجل غامض يقهقه في طائرة تطير على ارتفاع 33 ألف قدم، ويتهدده

خطر لا أحد بمقدوره ان يحدّد نوعه وحجمه؟

في بداية الاسبوع الثاني قرّرت بعد تفكير طويل أن أضع حداً لانطوائي في البيت، وان أكثر من الحركة والتنقل في أمكنة مختلفة محاولاً نسيان تلك الحادثة قدر الامكان وذلك بالانغماس في أعمال وأنشطة صغيرة والاستفادة مما بقي في عطلتي من أيام قبل ان أعود الى مدن الضباب والبرد والوجوه البيضاء المنغلقة والغرف الرمادية.

بدأت بجولة طويلة في الحقول سيراً على الأقدام. تخلّصت من زوج أختي الذي اكتشفت طاقته على العناد في ذلك اليوم، ثم حملت قارورة ماء وعصا أبي وقبعته من القش ذات الحواف العريضة، وأسلمت قدمي لرمل المسارب ونباتاتها وحجارتها. عبرت حقولاً كثيرة. متمعناً في جذوع اشجار الزيتون الضخمة ذات التجاويف المعتمة التي كنت لا أقرُبها خوفاً من الأفاعي التي تعشش فيها ثم نزلت واد الجباس دون أن أحيد عن مجراه الجاف. من حين الى آخر أتوقف لأتأمل اشجار الدفلى والزنبق والصفصاف او أُشاهد راعياً مسنداً ذراعيه العاريتين الى عصا فوق أعلى الظهر يسير بتمهل خلف ابقار هزيلة تنتقل بين شعاب حمراء ينبت في أعماقها شيء من العشب، أو أجلس على هضبة صغيرة من رمل الواد قريباً من المكان الذي كنا نعبره فيه عندما نلاحظ ان هدير المياه الموحلة التي تجرف اشجاراً مقتلعة وخنافس وفئرانا وقططاً وكلاباً ميتة قد هدأ.

ذات ظهيرة غادرت البيت بسرعة غير مبال بالحرارة، وأخذت اسير بدون هدف في طريق ضيق تقوم على جانبيه اشجار صبار عالية تغيّر لونها بسبب الجفاف. بعد وقت قصير بدأ كل ما

حولي يغرق في السراب. كانت الشمس وسط السماء، لكني كنت أشعر انها قريبة من رأسي، لا تفصلني عنها سوى بضعة أمتار. كل الأمكنة خالية إلاّ من أبقار وحمير تضطجع الأرض تحت أشجار الزيتون القليلة المتناثرة هنا وهناك، والهواء يلتهب من شدة القيظ. لم أعد اقوى على فتح عيني فأسرعت الخطى ثم أخذت أجري. لا أحد في البئر، وحتى الحمير السائبة التي تتجمع كل يوم حول الحوض في مثل تلك الساعة بحثاً عن قليل من الماء لم تكن هناك. في لحظة ما شعرت بالخوف فركضت نحو زيتونة الكلب. وحالما وصلت اليها تمدّدت في الظل مستنداً برأسي الى جذعها.

أصبحت ايضاً أتردّد على الحانوت. في البداية كان حضوري يربك الرواد اذ ان الكثيرين منهم كانوا لا يعرفونني جيداً كما انني كنت من الذين لا يذهبون الى الحانوت إلاّ نادراً، وفيما بعد تعودوا عليّ، وصاروا يستقبلونني بترحاب كبير. عندما أطل برأسي في الباب ينزلقون على الحصير بأجسادهم في اتجاهات مختلفة تاركين لي مكاناً يتسع لشخصين. أحياناً أكتفي بالجلوس بينهم والاستماع الى ما يروونه من حكايات، وأحياناً ألعب معهم الورق.

هكذا قضيت أغلب الأيام الأخيرة من عطلتي القصيرة. ولا بدَّ ان أعترف أنَّني استطعت ان أتحرّر قليلاً من أسر ذلك السؤال الذي كان يتملك ذهني ويعذبني وان انسى احياناً حادثة المطار وكل ما ولدته في نفسي من مخاوف وأوهام وتخيلات، وان أتخلص ايضاً من صورة ذلك الرجل ذي الوجه الطويل الضامر والشفة السفلى الممتلئة المتدلية الذي اندس فجأة في حياتي بسبب

مزحة بسيطة عن اعلان لا يهمني في النهاية اذ انّني لا أُسافر إلاّ نادراً فضلاً عن انني لست من هواة ركوب الطائرة.

بعد عودتي بأيام قليلة اكتشفت مصادفة حقيقة ما حدث في المطار. ذات يوم، بينما كنت أتصفح المفكرة شارد الذهن في انتظار ان أستسلم للنوم وقعت عيناي على اسمه ورقم هاتفه. كنت قد نسيت تماماً انه قد سجلهما في مفكرتي خلال ذلك الحديث المتقطع عن غلاء المعيشة وارتفاع عدد السياح وتحول قلب العاصمة الى ما يشبه السوق الشعبي. في حركة سريعة استدرت بكامل جسدي، ورفعت سماعة التلفون وانا شبه متأكّد انه يقبع انذاك في سجن برج الرومي وحيداً بين جدران رمادية باردة. وكم كانت دهشتي كبيرة حين انقطع الرنين فجأة وتناهى اليّ صوته، ثم حين علمت ان ايقافه لم يدم سوى ساعتين، فبعد التثبت والتدقيق وبعد استنطاق قصير تفرج فيه الجميع على مؤخرته بعد ان ارغم على نزع كل ملابسه، وبعد حوالى عشر صفعات ولطمات وعدد مماثل من الشتائم والاهانات تبين للشرطة انها ارتكبت خطأ، فعادل الطالبي المنتصب عارياً كما ولدته أمه مقابل الجدار في احدى زوايا المكتب ليس علالة الطالبي الذي يوزع في أوساط المهاجرين مزوّدي الوطن بالعملة الصعبة وشاحنات بيجو 404 منشورات خطرة.

طوال المخابرة لم اقل شيئاً. لما انتهى من الكلام أعدت السماعة إلى مكانها، ثم تمدّدت على الفراش. وبعد لحظة طويلة اندفعت بجذعي إلى الأمام وأخذت أردّد بصوت مرتفع الله يقصف عمرك.. يا عادل الطالبي.. الله يخرب بيتك..

- 4 -

قبل ان يصبح الحاج حاجاً كان له اسم، حمودة الأشهب، أتأمل الاسم المكتوب بخط مغربي وأنا أقلب أوراق المفكرة التي وضعتها على المخدة قبل ان استدير وأتمدّد على بطني. أستعيد الوجه العريض بالذقن التي تحمل اثر ندبة قديمة، بالأنف ذي المنخرين المستطيلين اللذين ينبت فيهما شعر كثيف، بالعينين السوداوين الضيقتين اللتين تلتمعان. أستعيد تلك الحركة البطيئة، حركة اليد وهي تمسك بفنجان القهوة، ثم ترفعه الى الشفتين..

بعد وفاة أبيه واستلامه أمور العائلة صار الناس يسمونه سي حمودة. أمَّا الذين كانوا يجلّون والده او يبالغون في احترامه او يودون التقرُّب منه لقضاء بعض شؤونهم فقد كانوا يسمُّونه سي حمودة بن مصطفى، فهم يعرفون ان هذا الاسم يولّد في نفسه احساساً بالافتخار والزهو، اذ ان المرحوم مصطفى لم يكن رجلاً عادياً. كان له حقل واسع يجني من لوزه وزيتونه كل عام مبلغاً مالياً يعادل احياناً ما يربحه من تجارة الأبقار التي يتقنها. بيته أكبر البيوت في الهوارب وأكثرها نظافة وترتيباً، ففي كل صيف تُدهن أبوابه وشبابيكه بدهان أزرق وتُطلى جدرانه بالكلس. الآن يبدو صغيراً أمام الفيلا التي يبنيها ابنه الحاج بأموال البطالة التي يرسلها كل شهر الى الهوارب، لكنه لا يزال متميزاً وسط البيوت الصغيرة المتناثرة حوله. وكان للمرحوم ايضاً مذياع ضخم اشتراه من القيروان في عام فاقت فيه صابة الزيتون كل توقعاته، وهو أول مذياع في الهوارب. في الليل يفتحه المرحوم بعد العشاء فيقبل على البيت رجال وأطفال وبعض العجائز ويتكومون على الأرض حوله، ولا يغادرون المكان إلاّ بعدما يغلق المرحوم

المذياع ويسدل عليه المنديل الأبيض المطرز الحواشي في انتظار ان يبرد كما يقول لكي يعيده الى مكانه في الغرفة التي ينام فيها. وكان يمتلك بئراً كذلك. «بير مصطفى»، هكذا كان يسميها الناس. منذ ان قال له رجل غريب مرَّ ذات يوم بالهوارب مصادفة ان هناك بحراً تحت ارضه والمرحوم لا يكف عن الحفر والتنقيب في أماكن مختلفة من الحقل الى ان عثر على الماء. سيَّج البئر بجدار واطىء مستدير، وأقام على الجانبين جدارين رقيقين من الاجر ثبَّت في وسطهما رافدة سميكة من الخشب، ثم فتح البئر للجميع رغم انها توجد وسط الحقل تماماً. لم يستمع الى نصائح وتحذيرات زوجته دادا العكري كما كان يُسمِّيها الجميع. وكل ما فعله هو انه اقتلع شجرتين، ثم فتح مدخلاً صغيراً في سياج الحقل، وحوَّل ارضاً مستطيلة ضيِّقة الى ممر محاط بأسلاك شائكة يسلكه الذاهبون الى البئر. كل سكان الهوارب يتذكّرون إلى حد الآن ذلك الحدث الذي غيَّر ايقاع حياتهم، فماء البئر صاف وعذب على عكس ماء العين الملوث المليء بفراخ الضفادع الذي كانوا يشربونه، كما ان البئر أقرب بكثير الى بيوتهم من تلك العين التي يقطعون مسافة طويلة للوصول اليها، فهي توجد في شعب عميق وموحل في واد الجباس تنبت فيه غابة صغيرة من اشجار الدفلى. ظلوا يتزودون بالماء من بير مصطفى الى ان حفرت الحكومة في الأعوام الأخيرة في مفترق طرق قريب من الجبانة بئراً ارتوازية يتدفق من أنابيبها من الماء في ساعة واحدة ما يكفي كل سكان القرى المجاورة طوال اليوم. في الفترة الأخيرة من حياته، وبعد وفاة دادا العكري أخذ المرحوم يتغير. حماسته للتجارة فترت، والتنقل بين أسواق العلا ومكثر والوسلاتية لبيع الأبقار او شرائها صار يرهقه مع تقدُّم السن، وعنايته بالحقل

والبئر وحتى البيت أخذت تتناقص. إلاَّ ان كل ذلك لم يغيّر من مكانته في الهوارب.

استلم سي حمودة أمور البيت وهو لا يزال أعزب. كان قد تجاوز الثلاثين، لكنه لم يقبل بعد فكرة الزواج، وحتى دادا العكري لم تنجح في اقناعه رغم الحاحها الشديد بأن يحقق رغبتها فينجب لها حفيداً يطمئنها على أن نسلها سيستمر بعد موتها. في فترة ما كانت تحدثه في الموضوع كل يوم وتفعل كل ما باستطاعتها لدفعه إلى الزواج. كانت تعرف انها تبالغ في ذلك احياناً، لكن لم يكن لديها أي خيار آخر، فسي حمودة هو الوحيد الذي بقي على قيد الحياة بعد موت اخوته الثلاثة الذين سبقوه الى الوجود اثر اصابتهم بأمراض لها أسماء غريبة تسمع بها للمرة الأولى في حياتها. ولما أدركت انه يريد ان يظل أعزب أخذت تتساءل عما اذا كان فحلاً مثل أبيه الذي أخصبها أربع مرات.

هكذا وجد سي حمودة نفسه وحيداً فجأة في بيت كبير ازداد اتساعاً ووحشة بعد موت المرحوم. لم يستطع ان يبقى على تلك الحال اكثر من عام واحد. فبعد أشهر قليلة تبيَّن له ان أُمّه العكري كانت محقة تماماً، وانه في حاجة ماسة الى امرأة تملأ البيت بحضورها وبمَن تنجبهم من أطفال وتساعده على الاعتناء بالبيت والحقل والبئر التي ينوي استغلال مائها ليتمكن من ممارسة تجارة الأبقار التي يحبها مثلما كان يحبها المرحوم.

لم يقضِ وقتاً طويلاً في البحث عن هذه المرأة فالنساء اللاتي كنَّ في سن الزواج في الهوارب قليلات، وهو لا يريد الزواج من امرأة لا يعرفها من احدى القرى المجاورة. فكَّر قليلاً في الموضوع فقد علَّمه المرحوم منذ ان كان طفلاً ألاَّ يتخذ قراراً

إلاَّ بعد التفكير، وخلال يوم واحد حُسم الأمر. اختار اجمل فتاة في الهوارب بسهولة كبيرة، فحضرية كانت متفوقة على غيرها تفوقاً واضحاً يتجلّى في أغلب ما يفضّله حمودة وغيره من الرجال لدى النساء. البشرة شديدة البياض، فمنذ ان بلغت حضرية سن الزواج احتجبت في البيت لكي لا تعرض جسدها للشمس فتسمر. وحين تضطر الى الخروج ترتدي جوارب طويلة تصل الى الركبتين، وتغطّي ذراعيها وتحجب وجهها بوشاح شفاف يمكنها من ان ترى الأشياء بوضوح. الردفان ضخمان مكوّران طريان يهتزان اهتزازاً لا تخطئه العين حتى عندما تسير ببطء. الشعر طويل اسود لامع. في الليل قبل ان تنام تضفره، واحياناً تخضبه بقليل من الحناء، وفي الصباح تمشطه طويلاً وتدهنه بزيت الزيتون، ثم تتركه منسدلاً على كتفيها.

لم تكد تمضي بضعة شهور على الزواج حتى تبيَّن لحمودة انه احسن الاختيار، فقد اكتشف ان للأحضرية كما صاروا يسمُّونها بعد ان تزوجت والتي ستصبح بعد أعوام الحاجة ليست جميلة فقط، وانما ذكية ورصينة وغير مبذرة ايضاً. نعم، لولا حضرية لما استطاع حمودة ان يفعل ما فعل، وخصوصاً ان يوفر ما وفّر من مال وهو ما مكّنه من أداء فريضة الحج ومن أن يكون اول حاج في الهوارب قبل ان يتحول الحج الى ظاهرة في أوساط العمال المهاجرين. ولولاها لعجز عن ملء مطبوعة واحدة من هذا الكدس من الأوراق الذي يكومونه امامه في الادارات الفرنسية كلما اراد ان يتقدم بطلب او يرتب امراً ما. منذ ان بدأ ذلك الابن الهامل يهجر البيت صممت حضرية على تعلُّم الفرنسية. كانت لا تعرف سوى بضع كلمات تعلمتها بالسماع من

الأماكن التي كانت تتردّد عليها. اشترت بعض ما تحتاجه من كتب، وأخرجت ما تحتفظ به من كراريس ابنها القديمة، وانهمكت في العمل، مستعينة بمَن تعرف من الجارات اللاتي يتقن الفرنسية كما يرددن بتباه واضح.

وبعد أشهر قليلة تعلمت من الفرنسية التي تنطقها بلكنة محببة ما يمكنها من الفهم والتخاطب وتسوية الكثير من الأمور والمسائل حتى ان زوجها اصبح يردّد بشيء من التباهي في اوساط المهاجرين الذين يخالطهم ان زوجته تتكلم الفرنسية وتفهمها جيداً ولا يفوته ان يشير الى ان الفرنسيين يفهمون بسرعة ما تقوله ويبدون اعجابهم بالطريقة المتميزة اللذيذة التي تنطق بها ما تعرفه من كلمات.

في تلك الفترة اكتشف حمودة ايضاً هذا الذي يتحدثون عنه كثيراً في الأغاني ويسمُّونه الحب. شيئاً فشيئاً أخذت تنتابه أحاسيس لم يعرفها ابداً. قبل ذلك كان هناك جسد ممتلىء يثير رغبته بين وقت وآخر، والفة وشيء من المودة. بعد شهور قليلة حدث تغيُّر سرِّي بطيء داخله، وأخذ يستولي عليه خليط غير مألوف من المشاعر. رغبة جامحة تهزه من حين إلى آخر. احساس بالفقدان. فرح لا مبرر له. كآبة لذيذة. الخوف من خطر غامض. اطمئنان ليس كالاطمئنان.

دام ذلك سنة كاملة. منذ البداية أدرك حمودة انه يعيش هذا الذي يسمُّونه الحب. كانت تلك هي المرة الأولى التي يحدث له فيها ذلك. كان يعرف أنَّه تغيّر كثيراً. حتى جسده لم يعد كما كان. الوجه العريض استطال قليلاً وشحب، والعينان السوداوان المستديرتان ازدادتا التماعاً. كان يلاحظ ذلك كل يوم حين يقف

أمام المرآة، وكان يشعر ايضاً بهذه الأحاسيس المتنافرة وهي تتدافع في سباق محموم لامتلاكه. لكنه لا يفهم كيف يستطيع الحب ان يحدث كل هذا التغيير في نفسه.

في أغلب الأيام يعود الى البيت مبكراً ويحرص على ان يتناول العشاء برفقة حضرية خلافاً لما كان يفعل في السابق. وحين يلاحظ انها ترتبك وتشعر بالخجل وهي تتناول الطعام يتوقف عن النظر اليها أو يحدثها بهدوء عمَّا فعله طوال اليوم أو يروي لها قصصاً طريفة. بعد أعوام طويلة، حين تتذكر الحاجة تلك الأيام ينتابها احساس خفيف بالخجل يرافقه شيء من الفرح، فخلالها انتظمت علاقتها بحمودة، وتعلمت ان تكلمه وتنظر الى وجهه وتناقشه وتخالفه الرأي، بل حتى ان تلسمه وتتأوه أحياناً حين يصعد فوقها دون خوف من ان يزجرها أو يلومها او يتهمها بأنَّها امرأة فاسدة.

أصبح حمودة كريماً في تلك الفترة. لم يبخل عليها بأي شيء مما تعرف وتشتهي من ألوان الحلوى والفواكه. راحة حلقوم، شامية باللوز، حمص مقلي، زبيب، حلوى حمصية، حلوى بالزقوقو، زلابية، مخارق، موز، عنب، تفاح.. حتى حلمها بالذهاب الى القيروان للاستحمام في الحمام وتصفيف شعرها عند الحلاقة حققه لها وان كان قد أبدى قليلاً من التردُّد في البداية خوفاً مما يمكن أن يقوله الناس حين يبلغهم الخبر. استأجر لها سيارة اجرة جاءتها الى البيت في الصباح الباكر، ولم تعدها اليه إلاَّ عندما أخذت العتمة تنتشر في الحقول وبين البيوت.

بعد العشاء يتمدّد على الحصير مستنداً بأعلى ظهره الى

الجدار، ويأمر حضرية بأن تجلس امامه على طرف الحصير بعد ان يرمي لها بمخدة لكي تضعها تحت ركبتيها الممتلئتين، ثم يشرع في اعداد الشاي. بين وقت وآخر يمد لها كأس شاي وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة هاك.. يا للاَّ... ثم يضيف وهو يضع في الكأس شيئاً من اللوز المقشر اشربي.. بالهنا والصحة... تحني حضرية رأسها خجلاً، وتقرب الكأس من شفتيها ببطء خوفاً من ان يندلق الشاي على ركبتيها الغائصتين في المخدة. ارفعي رأسك يا للاَّ.. خلينا نشوف هالزين. تتراجع حضرية الى الوراء قليلاً، ومن حين إلى آخر تلقي نظرة عابرة على وجهه. يبتسم لها حمودة ويغمزها، ثم يواصل التحديق في جسدها المكوّم امامه على الحصيرة وهو يردّد بصوت يخفت شيئاً فشيئاً وتتغير نبرته سبحان ما خلق وصوّر.. وبعد لحظات طويلة يكف عن الكلام فتفهم حضرية انه قد حان الأوان لذلك الشيء. تزداد انحناء، وتلتف حول نفسها كما لو أنها تريد ان تحمي جسدها من خطر ما. يجر حمودة جسده نحوها جراً خفيفاً الى أن يلامسها. يظل للحظة طويلة ساكناً كأنَّما تجمّد جسده. وفجأة يبطح حضرية في حركة عنيفة، ثم يعريها تماماً. الوجه على الحصير، والعينان مغمضتان، والردفان الضخمان المكوران الطريان أمامه. سبحان ما خلق وصوّر.. يتمتم من جديد، ثم ينحني، ويمرّر يده عليهما ببطء شديد فيهتزان اهتزازاً خفيفاً في تموجات صغيرة. يزداد انحناء، ويدس ذقنه الصغيرة المستديرة في أعلى ذلك الشق المظلم الرطب، ويشرع في الهبوط. حين يقترب من منصفه تغزو انفه رائحة يحبها رغم انها غريبة وكريهة. يتوقف قليلاً، ثم يواصل الانحدار. وعندما يبلغ نهاية الشق تتلاشى تلك الرائحة، وتحل محلها رائحة أخرى تهيِّج كل خلية في جسده. يدفع حمودة

حضرية الى الأمام، ثم يرفع قليلاً ردفيها الثقيلين، ويتهالك عليها وهو يرتعش من اللذة.

عندما يتذكّر حمودة كل ذلك يشعر بالخجل، ويحمد الله على ان تلك الحالة لم تدم سوى عام واحد، وان كان يعترف في قرارة نفسه بأنَّه لم يتمتع بحضرية طوال حياته مثلما تمتع بها في تلك الفترة القصيرة التي عاشها بعد زواجه بشهور قليلة. ظل احساس خفيف بالخجل ممزوج بشيء من الندم يلاحقه. ولم يستطع ان يتخلص من ذلك إلاّ بعد سنوات طويلة، عندما أدَّى فريضة الحج برفقة حضرية. لما انتهى من الطواف بالكعبة ترك زوجته في مكان آمن، ثم بحث عن مكان منزو. جثا على ركبتيه، وحمد الله طويلاً، ثم توجه اليه بصوت مرتفع متوسلاً غفرانه ورحمته.

لما استعاد حمودة توازنه وهدوءه وتحرّر من أسر تلك الأحاسيس الغريبة استأنف العمل الذي كان قد شرع فيه قبيل زواجه. في البداية اعتنى بالبيت. طلى الجدران بالكلس، ودهن الأبواب والشبابيك بدهان ازرق كما كان يفعل المرحوم. وقبل ذلك طلب من بنَّاء مشهور بمهارته في كل القرى المجاورة ان يبني له خلف البيت ما يشبه المرحاض لتمكين حضرية من ممارسة حاجاتها الطبيعية في اطمئنان وهدوء وحياء، والحفاظ على شرفها وعفتها، فهو لم يعد يتحمل ان يراها تتعرّى كل يوم عدة مرات في الخلاء كاشفة رغم حذرها الشديد جسدها لكل الذين يسلكون الطريق المحاذي للحقل. وبعد أيام قليلة استبدل أبواب الغرف الضيقة القديمة بأبواب واسعة تفتح وتغلق بسهولة استجابة لرغبة حضرية التي ازدادت سمناً الى درجة انها أصبحت تجد صعوبة في

دخول تلك الغرف او الخروج منها، كما سيَّج جزءاً من ساحة البيت الواسعة بجدار واطىء، وبلّط الأرض بطبقة سميكة من الاسمنت كي لا يتسلل الغبار والتراب الى الغرف كما يحدث كلما هبَّت الريح، وليحمي البيت من عقارب الصيف التي تكاثرت في الأعوام الأخيرة. حالما يشغل المصباح وينتهي من إعداد الفراش الذي يحب أن يستلقي عليه للتمتع بنسيم الليل تغزو المكان من الجهات الأربع عقارب سوداء وصفراء كأنّما كانت على اتفاق. ورغم حذره الشديد الذي يمكّنه من العثور عليها ومطاردتها وقتلها بما يكدّسه حوله من أحذية قديمة استعداداً للمعركة، فإنَّ بعضها يتسلل إلى الغرف ويندس احياناً في الفراش ويختفي خلف الأبواب ووراء الصناديق وحتى تحت الوسائد. قبل زواجه بأيام قليلة بقي حمودة كعادته في الفراش بعد ان نهض من النوم. تثاءب طويلاً، ثم استدار واستلقى على بطنه محتضناً الوسادة. فجأة أحسَّ بشيء يتحرك ببطء مدغدغاً راحة احدى يديه دغدغة خفيفة لذيذة استسلم لها بسرعة فأغمض عينيه. لا يعرف كم دامت تلك الدغدغة، فقد كان خلالها في هذه الحالة التي تفصل بين النوم واليقظة. لما فتح عينيه رأى الشيء الذي كان يدغدغه. عقرب سوداء كبيرة كانت على كتفه اليمنى قريباً جداً من وجهه. أغمض حمودة عينيه واستجمع كل قواه لكي يظل على تلكُ الحالة، فهو يعرف انه يكفي ان يقوم بحركة واحدة لكي تلسعه العقرب. بعد لحظة طويلة من التوقف غادرت الكتف وأخذت تتسلق العنق ثم الوجه. توقفت من جديد فوق الأنف تماماً، إلاَّ انها سرعان ما عادت الى الحركة. عندما بلغت أعلى الرأس فتح حمودة عينيه، وبعد قليل اخذ يستدير ببطء شديد فرأى العقرب تتسلق الجدار. اندفع خارج الفراش، والتقط فردة حذائه،

وبضربة قوية واحدة حوَّل العقرب الى لطخة سوداء على الجدار.

بعد تبليط الساحة وتسييجها تناقص كثيراً عدد الحشرات والخنافس التي كان يعثر عليها في الغرف، العقارب ايضاً قلَّ عددها، وما يجده من هذه الدويبات السامة لا يجتاز في بعض الأحيان بوابة الساحة مما يسهّل عملية دعسها ورمي ما يبقى منها في مكان بعيد عن البيت. أصبح حمودة يستلقي على الفراش الذي تعده له حضرية في الساحة مطمئناً، وينهمك في اعداد الشاي او حسابات ما باع واشترى وتسجيل ذلك في دفتر صغير، اذ ان حمودة ليس أُمِّياً جاهلاً ككل الرجال الذين في سنه في الهوارب والقرى المجاورة، وانما هو رجل متعلم ومتسقف كما يقول اصدقاؤه في الغربة. والفضل في ذلك يعود طبعاً إلى المرحوم الذي أصرَّ على ان يتعلم القراءة والكتابة في كتاب بعيد ظلَّ يتردّد عليه طوال عام كامل. أحياناً يقبل على البيت رجال ونساء لقضاء السهرة برفقته. تفرش لهم حضرية حصيراً آخر بعد ان تستقبلهم بحفاوة، اما حمودة فإنَّه ينهض من مكانه حالماً يجلسون، ويدخل البيت ليخرج بعد لحظة حاملاً المذياع الضخم. يضعه على طاولة، ثم يرفع عنه الغطاء، ويفتحه لهم كما كان يفعل المرحوم.

لما أتمَّ البنَّاء شغله في البيت أمره حمودة بأن يشرع فوراً في تهديم قبري المرحوم ودادا العكري، وأن يعيد بناءهما. كان قد قرَّر ذلك منذ فترة طويلة. ذات يوم، بينما كان يتجول في الجبانة كما يحب أن يفعل بين وقت وآخر خصوصاً في نهاية الظهيرة لاحظ ان القبرين المتجاورين والمتشابهين تشابهاً كبيراً لا يختلفان عن القبور الأخرى التي تحيط بهما من كل الجهات، ولا

يليقان بتاتاً بالمرحوم والمرحومة. لا شيء يميزهما عمَّا حولهما سوى شاهدتين حجريتين صغيرتين نقش عليهما بخط معوج غير واضح ما كتبه بنفسه بحروف كبيرة على ورقة سلّمها الى أشهر خطاط في القرى المجاورة. منذ البداية لم يكن حمودة راضياً عن هاتين الشاهدتين، وشيئاً فشيئاً تلاشى هذا الاحساس بعدم الرضى، وحلَّ محله شعور كالنفور خصوصاً حين اكتشف مصادفة ان شاهدة قبر دادا العكري تحتوي على خطأ فادح في تاريخ ميلادها. صحيح انه لا أحد يعرف بدقة لا العام الذي وُلدت فيه دادا العكري ولا سنة ميلاد المرحوم، ففي الفترة التي خُلقا فيها كان الناس لا يسجلون المواليد الجدد في دفاتر الحكومة كما يفعلون الآن، ولكن الخطاط لم يتقيد بالتاريخ الذي صار يعرف بأنَّه تاريخ ميلادها كما فعل مع المرحوم، وانما أضاف الى عمرها سبعة أعوام!

لم تكد تمضي بضعة أيام على الانتهاء من بناء القبرين اللذين أصبحا يجتذبان كل الزوار بشاهدتيهما المرمريتين حتى انهمك حمودة في العمل من جديد. حرث الحقل الذي أهمله المرحوم في سنواته الأخيرة، واقتلع اشجار اللوز والزيتون الهرمة التي قلَّ انتاجها، وغرس مكانها اشجاراً صغيرة. أمَّا الأشجار الباقية فقد جرّدها كلها، ورشها بمواد مبيدة للحشرات الضارة. وبعد تفكير طويل تخلَّى عن فكرة تجهيز البئر بمحرك صغير يستخرج له من الماء ما يكفي لسقي مساحة صغيرة تُخصّص للبقول اذ انه أصبح مقتنعاً بأنَّ ما تحتاجه العائلة الصغيرة من الخضروات قليل ولا يتطلب كل هذا المجهود، اضافة الى ان المحرك الالماني الصنع الذي أعجبه منذ ان شاهده في متجر

آلات ميكانيكية في القيروان غال جداً.

في تلك الفترة اخذ يمارس تجارة الأبقار التي يحبها مثلما كان يحبها المرحوم. في البداية كان يتردّد على الأسواق القريبة فقط كي لا يغيب طويلاً عن البيت خصوصاً ان حضرية اعتادت ان تراه كل يوم في الحقل او البيت. وبعد اشهر قليلة أخذ يُسافر الى أسواق بعيدة. مكثر، الوسلاتية، العلا، الحاجب، الروحية. اسواق كان يتردّد عليها المرحوم عندما كان في أوج نشاطه، وأخرى جديدة اكتشف قيمتها بنفسه او دلّه عليها تجار آخرون. حين يكون متأكداً من ان غيابه سيطول يأمر حضرية بأن تحمل ما تحتاجه وتذهب الى عائلتها وتنتظره هناك في الدار الى ان يعود. وخلافاً للمرحوم الذي كان يقتصر في شرائه على عجول يسمّنها ثم يبيعها، كان حمودة يشتري كل ما يمكنه من الربح. عجلات، بقر حلوب، ثيران، أبقار صغيرة.

احياناً يتخلص حمودة من حذره، ويقدم على شراء مجموعة من العجول او العجلات بمبلغ مرتفع يتجاوز الرأسمال الذي يشتغل به، فهو واثق ان التجارة تحتاج بين وقت وآخر الى شيء من المخاطرة لتكون مربحة. كان حمودة يعرف جيداً ان المرحوم يتقن تجارة الأبقار اتقاناً يثير اعجابه، لكنه كان مقتنعاً بأنه يبالغ كثيراً في الحذر مما يحد من الربح. في إحدى المرات التي رافقته فيها إلى سوق الوسلاتية أشار الى ذلك اشارة عابرة فهمها المرحوم فوراً، لكنه لم يقل شيئاً، وانما حدجه بنظرة سريعة لا يزال يتذكرها.

بعد اسفار كثيرة الى اسواق عديدة أصبح حمودة يتردّد بشكل منتظم على ثلاثة أسواق بعيدة في الاسبوع. ينهض من

النوم باكراً، ويتوجه سيراً على الأقدام الى الطريق فيركب الحافلة الى السوق، ولا يعود الى البيت إلاَّ في نهاية الظهيرة وأحياناً بعد هبوط الليل. بعد يوم او يومين يجيء سائق مواش إلى البيت بالأبقار التي تم شراؤها. يستلمها حمودة بعد ان يفحصها بحثاً عمَّا يُمكن ان يكون قد حدث لها في غيابه وللتأكُّد من انه لم يتم استبدالها بأبقار مريضة او هزيلة، ثم يسوقها إلى مَن يحتفظ بها في زريبته في انتظار سوق الهوارب. أمَّا الأبقار التي يود بيعها في الأسواق الأخرى فإنَّها تنقل اليها مباشرة، ويلتحق بها حمودة فيما بعد لاستلامها ثم عرضها على المشترين.

الأسواق، البيت، الحقل.. في هذه الأمكنة يقضي حمودة جل وقته قبل أن يهاجر. صحيح انه يذهب الى الحانوت ويلعب الورق مع الرواد بل واحياناً يشرب الخمر مع بعضهم، لكنه كان لا يفعل ذلك إلاَّ ثلاث او اربع مرات في العام. في تلك السنوات التي يتذكرها دائماً بكآبة وحسرة لا شيء يهمه حقاً سوى عمله الذي كان يمارسه بحماس رغم ما كان يخسره احياناً بسبب مبالغته في المخاطرة وحضرية التي استطاعت بذكائها ان تساعده في تلك المرحلة الانتقالية الحرجة على ان يحل محل المرحوم ويستلم أمور العائلة.

نعم، كان من الممكن ان يمضي حمودة كل ما بقي له من الحياة هادئاً سعيداً مع للأَّحضرية في الهوارب متجنباً مشقة الهجرة وأتعاب الغربة وعذاباتها لولا هذا البطن الذي لا يريد ان ينتفخ، فها هو العام الثاني بعد زواجه يكاد ينتهي وجسد حضرية على حاله. لاحظ حمودة ذلك مبكراً، لكن الطبيب الذي يأتي بين حين وآخر الى الهوارب ويفحص المرضى تحت شجرة زيتون

طمأنه طالباً منه ان ينتظر عاماً أو عامين وناصحاً إيّاه بالإكثار من اكل اللوز والعسل وبمضاعفة نشاطه في الفراش ليلاً.

انتظر حمودة كل تلك الفترة، وفعل كل ما كان ينبغي ان يفعل إلاّ ان بطن حضرية لم ينتفخ. عندئذ قرّر ان يحملها الى طبيب مشهور في القيروان. بعد فحوصات عديدة اكتشف الحقيقة.. سائلك ضعيف.. واذا أردت ان تعالجه فاذهب الى فرنسا.. هكذا قال له الطبيب. هناك، في عيادة ذلك الطبيب قرّر حمودة ان يهاجر. والغريب في الأمر انه لم يدرس الموضوع جيداً مثلما اعتاد ان يفعل. وفيما كان الطبيب يحدّثه عن حوينات منوية لا تمتلك من القوة ما يمكنها من بلوغ البيضات في رحم حضرية لإخصابها وعن تكاليف العلاج والفترة الطويلة التي يستغرقها كان حمودة قد حسم الأمر وأخذ يتخيل الحياة الجديدة التي تنتظره هناك في بلاد الغربة.

الخوف الذي شعر به في البداية زال، بل وتحوّل مع مرور الأيام الى رغبة في السفر واكتشاف هذا الذي يتحدّث عنه بحماس بعض الذين خاطروا وهاجروا في القرى المجاورة. في وقت ما فكّر في السفر وحيداً، لكنه سرعان ما تخلّى ذلك خوفاً من ان ينكشف سره فيعرف الناس ان سائله ضعيف ومن أن يجد نفسه في مواقف وحالات لا يستطيع ان يواجهها بمفرده. لا بدَّ من ان ترافقه حضرية اذن. لا شيء يمنعهما من السفر، بل انها فرصة لم يكن يحلم بها اطلاقاً. سيبيع الأبقار بالأسعار التي يريدها اذ لديه ما يكفي من الوقت للقيام بذلك. اما الحقل فإنّه سيتركه في رعاية احد أقارب حضرية. وعلى أية حال فهو لا يستوجب اهتماماً كبيراً. مجرد مراقبته من حين إلى آخر، وحراسته

وجني زيتونه خريفاً ولوزه صيفاً. البيت ايضاً لا يحتاج الى رعاية كبيرة، فيكفي ان تفتح ابوابه وشبابيكه من وقت إلى آخر لتهوية الغرف وكنسها ونفض الغبار عن الاثاث. وهو ما يمكن ان تقوم به اخت حضرية بسهولة. سيهاجر اذن الى فرنسا يقضي فيها عامين فقط سيمران كلمح البصر دون ان يشعر بهما. سيقيم في باريس أو ضاحيتها كما نصحه طبيب القيروان اذ ان ظروف العلاج هناك أفضل. سيتردّد على مستشفيات نظيفة وجميلة، وسيعالجه أطباء ماهرون قادرين على تقوية حويناته المنوية الكسولة فلا تتباطأ في الطريق بعد تدفقها من صلبه، وانما تمضي بسرعة الى بيضة حضرية كما يقول طبيب القيروان، وتخصبها فوراً. وبعد اشهر قليلة ينتفخ هذا البطن الذي لا يريد ان ينتفخ، ثم تضع حضرية مولوداً يثبت انه رجل فحل كالمرحوم وان حضرية امرأة كاملة. طوال الفترة التي سيقضيها هناك سيشتغل طبعاً اذ ان فرص العمل متوفرة للجميع كما يروي العائدون من الهجرة. سوف لا يضيع وقته في البحث عن عمل يناسبه، سيقبل أول شغل يُعرض عليه، فهو يعرف ان كل ذلك مؤقت. سيستأجر أيضاً شقة في عمارة متواضعة لكي يتمكن من توفير ما سيدفعه للأطباء ولشراء الأدوية وما سيحمله معه حين يعود الى الهوارب، اذ ماذا سيقول الناس لو عاد فارغ اليدين؟ لا بدَّ ان يشتري سيارة فالسيارات رخيصة وكثيرة هناك كالحمير هنا.. لا بدَّ ان يشتري ايضاً مسجلة وجهاز تلفزيون ومذياعاً صغيراً وأشياء كثيرة أخرى سيحتاجها في عمله في الحقل. على اية حال، قبل العودة سيعد بدقة وعناية قائمة كل ما ينبغي شراؤه لكي لا ينسى أي شيء.. نعم.. أي شيء..

- 5 -

يسمُّونها قحبة بلفيل، ولكني أحبها سعاد غرس الله. أحب ابتسامتها. أحب جرأتها، صوتها، حركة يديها حين تكون جالسة أمامي. أحب حكاياتها وطريقة روايتها وخصوصاً جسدها. عندما رأيت للمرة الأولى ابطيها المحلوقين شعرت برعشة تخترق كل جسدي. ومنذ ذلك الوقت صرت أؤمن بأنَّه لا شيء في جسد المرأة أكثر اثارة من أبطيها حين يكونان محلوقين. أذكر أنَّ أول ما قمت به حين اختليت بها للمرة الأولى عارية كما ولدتها أمها هو أنَّني دفنت رأسي في أحد أبطيها، ثم أخذت أتشمّمه وأحرثه بطرف لساني غير عابىء بوخز ما بدأ ينمو من الشعر..

أين أنتِ الآن.. يا سعاد..؟. أتساءل وأنا أنحني ببطء شديد على صفحة المفكرة في حرف الغين التي لا تحتوي إلاَّ اسمها المكتوب بحبر أحمر وبخط متردّد كأنَّه لطفل حديث العهد بالكتابة. كان قد مضى زمن طويل على فراقنا حين انقطعت أخبارها. في البداية اختفت فلم أعد أراها من بعيد كما في السابق في مقهى او مطعم او حديقة او محطة مترو برفقة احدى اولئك اللواتي كانت تشتغل معهن في «جمعية التونسيات المهاجرات»، لكن أخبارها ظلّت تصلني. علاقتها بالجمعية التي ساهمت في تأسيسها بدأت تتغير، وحماسها لما كانت تقوم به من توعية وتعبئة خصوصاً في ما كانت تسمِّيه بـ «الفترات الحساسة» كفترات الانتخابات قد فترت، وحتى فلسفتها في الحياة القائمة على عبارة «اغنم الحياة وامضِ» التي كانت تردّدها أخذت تتبدل على ما يبدو. وبعد فترة قصيرة انقطعت هذه الأخبار، وحلّت محلها شائعات لا أريد أن أُصدّقها. البعض يقول انها تزوجت

من مهاجر تونسي شديد التديُّن يشتغل بتجارة اللحم الحلال فغيّرت تماماً سلوكها ونمط حياتها. توقفت عن العمل وقطعت علاقاتها بأغلب صديقاتها، وانحبست في البيت، فهي لا تغادره إلاَّ محتجبة ولقضاء حاجة ملحة. والبعض الآخر يدَّعي انها عادت نهائياً إلى تونس، وفتحت بما وفّرته من مال الغربة وبثمن الثلاجات والغسالات والمكاوي والفيديوهات والمسجلات وآلات التصوير والأطباق والطناجر والملاعق والسكاكين ومشدّات النهود وعلب علكة هوليود التي حملتها معها صالون حلاقة كبيراً مجهزاً بأحدث الآلات في قريتها مجاز الباب. ويقول آخرون بمزيج من الشماتة والسخرية والحقد انها أُصيبت في عضوها التناسلي بمرض غريب وخطير دفع الأطباء الى ارغماها على ملازمة الفراش في أحد المستشفيات بالضاحية لكي لا تنتقل العدوى إلى غيرها. ويفسّرون ذلك بشهوانية سعاد القوية ورغبتها الجامحة في مضاجعة مَن يعجبها من الرجال غير غابئة بما يردّده حولها الناس وخصوصاً النساء من اشاعات وتهم وانتقادات وشتائم. ويزعم البعض ان سعاد كانت في فترة ما عشيقة شاب برتغالي غني له مطعمان في بلفيل، وانها ترافقه بين وقت وآخر لقضاء بعض الأيام في أحد الفنادق الفخمة على الكوستابرافا. ويتساءلون بشيء من الدهشة واللوم كيف تمنح امرأة جميلة وذكية مثل سعاد جسدها لكافر غير مطهر؟

لا بدَّ ان أعترف أنَّني لم أحبها في البداية، فقد كانت جرأتها تخيفني وتولدّ في نفسي قليلاً من الارتباك. حالما تطلعت الى وجهها المنعكس في المرآة المقابلة في مقهى شبه فارغ ذات يوم من أيام ذلك الصيف البعيد اشتهيتها. نعم، منذ اللحظات

الأولى أثارت سعاد رغبتي خلافاً لكل النساء اللاتي عرفتهن قبلها. بعد لقائنا الأول بأيام قليلة بلغت تلك الشهوة ذروتها وتحوَّلت الى حمى حين شاهدت لأول مرة أبطيها المحلوقين. لما انقطعت أخبارها اكتشفت وأنا أستمع الى الحكايات الغريبة التي بدأت تنسج حولها ان أغلب الرجال في القنصليات والوداديات التي كانت تتردّد عليها بحكم نشاطها في جمعية التونسيات المهاجرات كانوا يشتهونها، وانهم حاولوا بوسائل مختلفة جرَّها إلى الفراش. لم أستغرب ذلك فسعاد امرأة غير عادية، ولعل ما يزيد في تميّزها هو أنَّ أغلب النساء في الوسط الذي تتحرك فيه محدودات الجمال والذكاء، والثقافة.

القامة المائلة إلى الطول رشيقة. الشعر الذي يكاد يلامس الكتفين فاحم ناعم. العينان الواسعتان بلونهما الرمادي الداكن تشكلان مع الفم العريض ذي الشفتين الممتلئتين مركز الثقل لوجه مستدير شديد الجاذبية. إلاَّ أنَّ هذا الجمال الذي ورثته كما تقول عن جدة أندلسية الأصل على الأرجح وفدت الى تونس ضمن مَن وَفَدَ اليها هرباً من سيوف الاسبان ما كان ليبرز بهذا الشكل لولا ذكاء حاد يشع في العينين الواسعتين، وذوق في اختيار الملابس والتنسيق بين ألوانها واناقة كبيرة في حركاتها.

تعرّفت على سعاد ذات يوم من أيام صيف بعيد، في مقهى كنت أحبه لأن كل جدرانه مكسوة بالمرايا. حين أتذكّر تلك الفترة القصيرة أشعر بقليل من الفرح، فقد كانت أجمل ما عشته منذ أن أقمت في هذه المدينة. حالتي النفسية لم تعد سيئة، أمَّا ذلك الاحساس الدائم بالفشل والعجز فقد أخذ يتلاشى. والسبب هو أنَّني عثرت بعد بحث طويل ومضنٍ عن

عمل شبه ثابت في مؤسسة صحفية، وأصبحت أتقاضى من المال ما مكّنني من استئجار شقة صغيرة تقع في شارع مواز للشارع الذي يوجد فيه المقهى. كنت جالساً في مكان أشاهد منه المدخل. لم أرها وهي تدفع الباب فقد كنت منهمكاً في كتابة شيء ما. رفعت رأسي فجأة فوقعت عيناي عليها. كانت قريبة جداً الى درجة أنّني لم أنتبه إلى جمالها. لما خطت بضع خطوات داخل المقهى محدثة وقعاً سريعاً بكعب حذائها، استدرت، وألقيت نظرة عابرة على جسدها. توقفت، وبحركة سريعة سحبت كرسياً، وجلست عليه، ثم أخذت تنظر الى الشارع. في تلك اللحظة أدركت وأنا أتطلع الى وجهها المنعكس في المرآة المقابلة أنّها امرأة استثنائية.

بعد لحظات طويلة سيطرت فيها على ارتباكي استجمعت كل قواي ثم استدرت ببطء ونظرت مباشرة الى وجهها لأتأكّد انه جميل كما في المرآة. وكم كانت دهشتي كبيرة حين رأيت سعاد تنحني قليلاً في اتجاهي، ثم تبادلني النظر وهي تبتسم قبل ان تلتفت الى الشارع. اعتراني الارتباك من جديد، وأخذت يداي ترتعشان خوفاً وفرحاً في آن واحد. عدت أنظر الى وجهها المنعكس على المرآة محاولاً ان أستعيد ما يمكن من التماسك والهدوء.

لا أدري لماذا لم يخامرني أدنى شك في أنها تونسية. وبينما كنت مستغرقاً في تأمُّل ملامحها في محاولة للتنبؤ بالمكان الذي نشأت فيه قبل ان تنخدع بدورها بوهم الهجرة تملكتني بغتة رغبة قوية في التعرُّف عليها. لم أفكّر اطلاقاً في ما يمكن ان تقول او تفعل حين أجلس بجوارها. نهضت بسرعة، وبخطوات

واثقة توجّهت الى طاولتها، ثم سحبت كرسياً، وتهالكت عليه. ابتسمت من جديد، ثم استوت في جلستها متراجعة برأسها الى الوراء، وقالت وهي تتطلع إليّ بعينين ملتمعتين مضيّقة ما بين حاجبيها:

ـ كنت على يقين من أنّك ستأتي..

وفيما كنت أستعد لتقديم نفسي أضافت بعد ان انحنت عليّ كأنّها تود أن تفشي لي سراً:

ـ حدسي يقول انك مثقف.. هل هذا صحيح؟

في تلك اللحظة اكتشفت جرأتها التي ظلت تخيفني وتربكني لفترة لم تدم طويلاً لحسن الحظ. هكذا دخلت سعاد غرس الله حياتي. كانت علاقتي بها التي لم تدم سوى بضعة اشهر بقعة ضوء وسط ظلام تلك الأعوام السبعة خصوصاً انها تزامنت مع عثوري على شغل ثابت. كانت سعاد تقول لي بين وقت وآخر انها تحبني. لم أُصدّق ذلك طبعاً اذ كنت ولا أزال واثقاً من انها تفعل ذلك لأنّني كنت سخياً معها. إلاّ أنّني أميل إلى الاعتقاد بأنّها تعلّقت بي قليلاً في فترة صعبة كانت تحتاج فيها الى رجل. ولعلّ ما سهّل ذلك هو أنّني كنت دائماً مهذباً ولطيفاً معها. لم أتدخل ابداً في شؤونها وعلاقاتها، ولم أُبدِ ابداً رأياً أو ملاحظة عن سلوكها رغم أنّني كنت أحبها. كل ذلك لم يكن يهمني على أية حال، لأنّي كنت مقتنعاً بأنّ علاقتنا عابرة رغم أهميتها بالنسبة لي. كل ما كنت أريده من سعاد هو ان تجلس بجواري وتحدّثني، وبين وقت وآخر تأتي إلى شقتي لأعريها وأحرث بطرف لساني أبطيها المحلوقين. في الأيام الأولى كانت تهب على البيت مثل عاصفة. عادة أكون قد استيقظت من النوم، لكنني أظلّ في

الفراش انظر الى السقف كما أفعل الآن، أو أحاول ان أستعيد ما رأيته في الحلم. تدفع الباب بقوة، وتتوجه الى نافذة الغرفة محدثة وقعاً بكعب حذائها اذ انها تنتعل دائماً أحذية بكعوب صلبة. تزيح الستارة بحركة واحدة وتفتح النافذة على مصراعيها، ثم تقترب منّي ببطء.

ـ أراهن على ان هناك عقارب وعناكب ضخمة في كابوسك..

تقول بسخرية ملمحة الى ما كنت أرويه لها من كوابيسي التي بدأت تتناقص في تلك الفترة، ثم تسألني بلهجة مصرية متدلعة كما في الأفلام المصرية التي كانت مدمنة على مشاهدتها:

ـ عاوز ايه.. اهوة والاَّ شاي؟

لا أجيبها، وإنَّما أمد يدي الى ربلة ساقها وأشرع في تلمسها. لا أدري الآن أي احساس سيولده في هذا الفعل البسيط، ولكنّي أذكر انه كان يوقظ كل خلية في جسدي في تلك الأيام البعيدة وخصوصاً يشيع في نفسي شعوراً لذيذاً بالفرح والزهو في آن واحد. حين تستدير بتؤدة للتوجه إلى المطبخ لإعداد القهوة أطوي المخدة وارتفع قليلاً برأسي لأتمكن من مشاهدتها وهي تبتعد. حالما تشعل الموقد وتضع الماء على النار تعود الى غرفة النوم. أحب وجهك الخارج لتوه من النوم في الصباح تقول لي وهي تنزع حذاءها ثم جواربها، وتُلقي بهما على الأرض بحركات أنثوية مغرية تقلد بها راقصات الستريبتيز، أُباعد ما بين ساقي، ثم ازيل الغطاء. تبتسم، وترفع قليلاً طرف فستانها او تنورتها، وبحركة سريعة تجلس على ركبتي فأحس بثقل ردفيها. كل ردف على ركبة. تنحني عليَّ ببطء فأمسك بذراعها، وبعد ان

أرفعها أمد رأسي نحو أبطيها وأشرع في تشمّمه مالثاً رئتي بخليط لذيذ ومخدر من روائح الأنثى والعرق وصابون الاستحمام السائل و«نرتا» مزيل الروائح الكريهة الذي كانت تستعمله كثيراً في تلك الفترة.

حين تتناهى الينا وشوشة الماء الذي يبدأ في الغليان تخلص ذراعها وهي تتراجع بجذعها، ثم تقفز خارج الفراش، وتتوجه بسرعة الى المطبخ. بعد لحظات تعود حاملة طبقاً عليه فطور الصباح. تضعه على كرسي بالقرب من السرير، وقبل ان تجلس وتشرع في صب القهوة وطلي الخبز بالزبدة والمربّى تقول بتلك اللهجة المصرية المتدلعة:

ـ الفطور جاهز..

لا أقول شيئاً، وإنّما ابتسم لها فرحاً واعجاباً بها. وما يزيد في فرحي هو أنّني كنت واثقاً من أنّها لا تتكلّف ذلك، وانما تفعله بدافع رغبة حقيقية. أجلس على طرف السرير مقابل سعاد تماماً، وأبدأ في تناول الفطور. أحب مربّى المشمش تقول وهي تضع منه طبقة سميكة على قطعة الخبز. أحرّك رأسي كما لو أنّني أريد ان أُعبّر لها عن سروري بإقبالها على مربّى كنت أشتريه لأني لا أعرف غيره. أتطلع إلى فمها، ثم أقول في نفسي وأنا أرقب شفتيها الممتلئتين المطليتين دائماً بأحمر فاقع «أيُّ قدرٍ ساق إليَّ هذه الأنثى المكومة أمامي؟»..

حين ننتهي من تناول الفطور اغتسل بسرعة. تعيد سعاد الكرسي إلى مكانه، وتحمل الطبق إلى المطبخ وتسوّي الفراش، ثم نخرج للتوجه إلى محطة المترو. في الطريق لا تكف عن الكلام. حالما نجتاز الممر الطويل المؤدّي الى باب العمارة

تلتصق بي، وتشرع في رواية حكاياتها التي أحبها بطريقتها المتميزة. حكايات طريفة عن النساء اللاتي يتردّدن على الجمعية التي كانت تشتغل فيها وأساليبهن في مراودة الرجال ومساحيق الماكياج اللاتي يطلين بها وجوههن، نوادر أغلبها جنسية، قصص عن ولع المهاجرين بسيارات مارسيدس التي تعيد لهم شيئاً من الاعتبار هناك، وعن شاحنات بيجو 404 التي يحمّلونها أكواماً من بضائع لا يمكن أن تجتمع في أي مكان آخر: أجهزة تلفزيون، ملابس وأحذية، حبال وزهور اصطناعية، أحواض مراحيض وآلات لتجفيف الشعر، مرايا مكبرة وأقراط موز أخضر لم ينضج بعد، سمك وثمار مجفّفة وعلب دهن، أحزمة جلدية وحفاظات أطفال، شفرات حلاقة وابر خياطة، مشاوي فحم وأمتار معدنية، خيوط أحذية ومسامير وبراغ بحجوم مختلفة.. ثم يقصدون مرسليا أو جنوة سالكين طرقات ثانوية لكي يوفروا ما يدفعونه للطريق السيار ويتجنبوا قدر الامكان رجال الشرطة الذين يجبروهم على دفع غرامة عن تجاوز الحمولة المسموح بها.

تروي الحكاية او النادرة، ثم تنفجر ضاحكة كما لو انها تسمعها للمرة الأولى، أو كما لو أن شخصاً آخر رواها. عندما أضحك بدوري يشتد ضحكها وتزداد التصاقاً بي فتتلامس أذرعنا وأصابعنا، وتتصادم سيقاننا وأرجلنا. حين أكف عن الضحك وأشرع في التطلع حولي إلى المارة تقول بنبرة متحمسة أنت مثقف.. لا تعرف هؤلاء الناس.. صدّقني.. لا أسخر منهم.. وانما هذه هي الحقيقة. تصمت قليلاً، ثم تعود إلى حكاياتها. في محطة المترو تقبّلني على شفتي، ثم نفترق. أذهب أنا الى مقر عملي، وتتوجه سعاد الى الجمعية لتوعية النساء المهاجرات

وإعادة النعاج الضالة الى القطيع كما كانت تقول مازحة.

بعد أسابيع قليلة أخذت زياراتها الصباحية تتناقص شيئاً فشيئاً، ثم انقطعت تماماً. صرنا نلتقي في الظهيرة أو في نهاية المساء، ليس في شقَّتي فقط وانما في المقاهي والمطاعم والحدائق العمومية ايضاً. إلاَّ أنَّ هذا التغيير الذي أثار في البداية مخاوفي لم يكن له أي تأثير سلبي على علاقتنا، بل أستطيع ان أقول انه كان انعطافة أساسية مهَّدت لمرحلة جديدة ازددت خلالها اقتراباً من سعاد واعجاباً بها. انضافت الى تلك الرغبة الجامحة أحاسيس أدركت فوراً طبيعتها ودلالتها. نعم. منذ ذلك الوقت أصبحت عاشقاً.

لم أفقد صوابي كما يحدث عادة للعشاق، لكنِّي صرت سخياً جداً معها. كنت أريد ان أهديها كل ما يعجبها. أحملها إلى غاليري لافيات او الساماريتين أو مجمع مونبرناس، وأبذل كل ما لدي من جهد لإقناعها بشراء شيء ما. أكون غالباً متوتراً خوفاً من ألا تلبِّي رغبتي فتحرمني من الاحساس بتلك المتعة التي لا يعرفها إلاَّ العشاق، متعة ان تعطي شيئاً لمَن تحب. أميل عليها، وأقول بلهجة متحمسة وأنا أمسك بطرف وشاح يتدلى من مشجب كم هو رائع.. رسمه يذكّرني بلوحة لرسام مشهور.. هل رأيت ساعة السواتش الحمراء ذات العقرب الواحد؟ وهذا العقد؟ انا متأكد انه يناسب تماماً لون بشرتك؟ وهذه الأساور وهذه الجوارب البيضاء، وعلبة الحلى، وهذا القلم الحبري وهذه القداحة المذهّبة، ألم تقولي لي ذات يوم انك تحبين القداحات الذهبية اللون.. لكن سعاد لا تريد شيئاً ليس لأنها تحب ان تحرمني من تلك المتعة، وإنَّما لأنها لا تريد ان تستغل حبي لها

فهي لم تقبل منّي سوى هدايا صغيرة وفي مناسبات محدّدة مثل عيد ميلادها الذي لا تحتفل به إلاّ نادراً.

كان الشيء الوحيد الذي ترغب فيه حقاً وتتحمس له بشكل واضح هو أن أدعوها إلى عشاء في مطعم لتناول أصداف البحر. نعم سعاد ابنة مجاز الباب كما تصف نفسها أحياناً، والتي لم تشاهد البحر للمرة الأولى إلاّ في الثالثة عشرة من عمرها خلال رحلة مدرسية الى بنزرت تعشق تلك الدويبات ذات القرون والقوائم والأشكال العجيبة التي يسمّونها في المطاعم ثمار أو أصداف البحر.

عندما يأتي النادل بطبق الثلج والطحالب الذي يحتوي على أجزاء سلطعون ونصف دزينة من المحار وعدد مماثل من محار الشواطىء الرملية والحلزون الأسود الصغير وبعض اللنغوستينات والقريديسات ويضعه بيننا على الطاولة تطلب نبيذاً أبيض، ثم تغطّي فمها بيدها وتضحك وهي تتطلع إليَّ بعينيها الرماديتين الواسعتين. أستدير ببطء وأحني رأسي كي أتجنّب عيون الجالسين حولي من رواد المطعم خصوصاً العجائز منهم وأنخرط بدوري في ضحك طويل لا ينتهي إلاّ حين يعود الينا النادل بقنينة الخمر.

تبدأ دائماً بالقريدسات الوردية التي تفضلها على كل أنواع الجمبري وحتى على السلطعون والكركند هذه الجرادة البحرية السوداء، الضخمة الباهظة الثمن. تمسك بالقريدس بعد أن تصب قليلاً من الخمر في كأسينا، وتشرع في تقشيره. تفعل ذلك بسرعة وبطريقة تدل على أنها تعرف جيداً هذه الدويبات البحرية. تقطع الذيل عادة في النهاية، ثم تُلقي بما بقي من القريدس في فمها، وتغمس أصابعها في خليط من الماء والليمون لإزالة الرائحة

واللزوجة.

تنظر إليّ وهي تشرب كأسها دفعة واحدة. أضحك من جديد، وأروي لها ما حدث لأختي الوحيدة لما تجرأت بعد الحاح أمي على أكل سمكة سردين. قبل أن تتزوج أهداها زوجها وقد كان خطيبها انذاك علبة سردين اذ اكتشف صدفة أن أختي لم تشاهد ولم تأكل أبداً سمكاً في حياتها. تناولت سمكة والتهمتها. بعد وقت قصير أخذت تشكو من ألم في أمعائها، ثم بدأت تتقيأ، ولم تنقطع عن ذلك إلاّ في ساعة متأخرة من الليل.

تبتسم سعاد دون أن تقول شيئاً. تغمس أصابعها من جديد في خليط الماء والليمون وتعود الى معالجة دويباتها البحرية التي تنتظر دورها مستكينة مستسلمة على ركام الثلج والطحالب. كانت تأتي على كل ما في الطبق. تزدرد المحار بعد ان تمطره بعصير الليمون الى درجة انه يبدأ في التحرُّك. تلتهم كل ما تجده داخل الحلزون الأسود. تكسر قوائم السلطعون بكلاّبة صغيرة وتستخرج بعناية كل ما فيه. أتابع المشهد دائماً بانتباه واعجاب. حالما أنتهي من تناول طبقي الذي لا يستغرق وقتاً طويلاً، أتكىء بظهري على مسند الكرسي، وأشرع في مراقبة حركة شفتيها وأصابعها متذكراً بين وقت وآخر ما روته لي عن حياتها في مجاز الباب.

ـ 6 ـ

أيَّتها الحوينات المنوية.. أخيراً هزمتك..

يقول حمودة الأشهب في نفسه وهو ينظر إلى بطن حضرية الذي يزداد كل اسبوع انتفاخاً وتكوراً. السائل لم يعد ضعيفاً يا حمودة.. والحوينات وصلت أخيراً إلى حيث يجب ان تصل،

وعملية الاخصاب تمت كما كان ينبغي ان تتم.

أخيراً صار بإمكانه أن يثبت لجميع الذين سخروا منه في السر والعلن أنه لا يقل فحولة عن المرحوم وان حضرية إمرأة كاملة وأنثى حقيقية مثل كل النساء في الهوارب.

كل شيء جاهز الآن، فالأعوام القليلة التي أمضاها في هذه البلاد دون أن يشعر حقاً بمرورها لسرعتها كانت كافية لتهيئة كل الأمور استعداداً لاستقبال ذلك الكائن الصغير الذي سوف يطمئن مجيئه دادا العكري في قبرها على ان نسلها سيستمر بعدها فتزداد استسلاماً لنومتها الأبدية..

مشكلة الاقامة التي عانى منها كثيراً وجد لها حلاً نهائياً. في البداية اضطر هو الذي قضى طفولته وشبابه في أكبر البيوت في الهوارب وأكثرها نظافة وترتيباً ان يقيم في غرفة واحدة تقع في الطابق الأخير من عمارة قذرة وقديمة درجات سلمها مهترئة او غير موجودة بكل بساطة في مواضع كثيرة، وأبواب شققها التي لا تدخلها الشمس فقدت ألوانها منذ زمن بعيد، وأغلب سكانها عزاب عنيفون او انطوائيون يتطلعون الى كل ما حولهم بحذر وأرامل ومطلقات لا أطفال لهن يصطحبن أحياناً رجالاً الى بيوتهن ليقضوا كل الليل معهن.

كانت غرفة غريبة حقاً. بابها الواطيء والعريض لا يشبه الأبواب الأخرى في العمارة، فلا بدَّ انه أضيف أو حلَّ محل الباب الأصلي. ونافذتها هي عبارة عن كوة مستطيلة شبيهة بهذه النوافذ الشائعة في المعامل. إلاَّ أنَّ الأمر الذي أثار استغراب حمودة وزوجته هو السقف. فهو غير مقوّس كما في بيوت الهوارب، وانما مائل من الجانبين كما في الخيمة وشديد الارتفاع

في الوسط. وهو لا يتكوّن من الآجر، وانما من روافد صغيرة وعوارض غليظة تدعمه في عدة مواضع.

تطيّرت حضرية من المكان منذ اللحظة الأولى. طوال ايام ظلّت تتحرك ببطء على أرضية الغرفة الخشبية وهي تستند الى الجدران. كانت لا تقطع الغرفة أبداً من الزاوية إلى الزاوية المقابلة خوفاً من ان تسقط في الفراغ، فقد كانت لا تريد ان تصدّق انَّ هناك تحت الأرضية الخشبية طبقة عريضة من الاسمنت والحديد.

وخلال الفترة التي أقاما فيها هناك لم تشعر حضرية ابداً بالأمن. كانت دائماً خائفة. خائفة من أرامل ومطلقات العمارة اللاتي يحدجنها بنظرات غريبة كلما التقتهن وهي تصعد او تنزل الدرج. خائفة من بعض هؤلاء العزاب حليقي الرؤوس غريبي الملابس والوجوه والحركات الذين ينتصبون أحياناً أمام مدخل العمارة، ومن بعض باعة الزرابي الجوّالين الوقحين الذين لم يتورع أحدهم ذات يوم عن دس أصبعه في راحة يدها لرسم حركة فهمت مغزاها فوراً، ومن هؤلاء الزوار الغرباء الذين يطرقون بابها بإلحاح أحياناً في أوقات لا تخطر على بالها ولأسباب وغايات تجهلها، ومن رنين هذا التلفون القديم الذي يفاجئها عدة مرات حين ترفع سماعته بأصوات وقهقهات وتنهدات غريبة كأنَّ أصحابها مرضى او معتوهون أو بكل بساطة من اولئك المخنّثين والفاسدات.

كانت تروي لحمودة كل شيء إلاَّ ما تعتبره بحسها الأنثوي جارحاً لكبريائه مثل حركة بائع الزرابي الجوّال او الغمزة الواضحة التي وجّهها اليها بائع الخضر الأزعر وهو يسلّمها ما بقي لها عنده

من نقود. وكان حمودة يطمئنها باستمرار شارحاً لها دون اقتناع حقيقي ما يفرزه التمدُّن من ظواهر وسلوكات تبدو لنا عجيبة، وموضحاً لها ان كل ما يتناهى الى سمعه من حكايات يؤكِّد ان ما تعتبره غريباً ومثيراً للخوف ليس في الحقيقة سوى شيء طبيعي هنا لا بدَّ من التعوّد عليه.

وفي محاولة أخيرة لطمأنتها وتبديد مخاوفها التي أوقعتها في حالة من الكآبة الدائمة اشترى حمودة قفلين كبيرين يزن كلاهما نصف رطل، وركّبهما بمساعدتها في الباب. في الصباح حالما يخرج من الغرفة تغلقهما بعناية بمفتاح تظل تحتفظ به في جيبها طوال اليوم. يبقى حمودة للحظة واقفاً أمام الباب، وعندما تتيقن حضرية من ان القفلين قد انغلقا بإحكام بعد تحريكهما وجذبهما بقوة تسمح له بالانصراف. إلاَّ أنَّ كل ذلك لم يكن مجدياً، فإحساسها بالخوف بالكاد تناقص..

لم يكن بيتهما الثاني الذي يقع في نفس الحي اكثر اتساعاً من الأول، لكنه كان أجمل منه. غرفة نظيفة، جدرانها مطلية بدهان أبيض مائل إلى الصفرة، ونافذتها عريضة تنغلق وتنفتح بسهولة، وسقفها مسطح كما في أغلب الغرف. أمَّا ارضيتها وهي ما أعجبت به حضرية أكثر من كل الأشياء الأخرى، فهي ليست مفروشة بالخشب وانما بطبقة من جليز ملون ينظف بسرعة، ويوفر للذي يمشي عليه حافي القدمين متعة كبيرة خصوصاً في ليالي الصيف الحارة.

تقع الغرفة في الطابق الأرضي من عمارة صغيرة تقوم خلف عمارة شاهقة حديثة البناء. كانت تفصل بينهما باحة صغيرة مبلطة بالاسمنت. في زواياها الأربع اصص زرعت فيها نباتات وزهور

عديدة تعتني بها عجوز اسبانية مهذّبة تقيم في الطابق الأخير من العمارة الصغيرة.

كان بيتاً منزوياً هادئاً. حالما رأته حضرية ارتاحت له كثيراً وأُعجبت به إعجاباً شديداً. وقد ازدادت تعلقاً به حين اكتشفت بعد أيام قليلة انها لا تشعر بأي خوف عندما تكون داخله حتى أنها بدأت تتخلى شيئاً فشيئاً عن غلق الباب بالمفتاح، وهو ما كانت تفعله كل يوم بعناية كبيرة حالما يتجاوز حمودة عتبة الغرفة. وقد لاحظت ايضاً وهي تعبر مدخل العمارتين الواحد او الباحة التي تعبق دائماً برائحة النباتات والزهور ان وجوه الجيران وملابسهم وحركاتهم ليست غريبة، وان النظرات التي توجه اليها تختلف عن تلك التي كانت تحدجها بها ارامل ومطلقات العمارة السابقة.

كل ذلك شجعها على القيام بأشياء كادت تنساها لارتباكها المستمر واحساسها الدائم بالخوف، كأن تنشر غسيلها في النافذة بهدوء، كأن تمشط شعرها وهي تتطلع باطمئنان الى النباتات والزهور، كأن تستند الى حاجز النافذة مسترخية بجسدها الى الأمام كما تحب ان تفعل لتشم الهواء كما تقول، كأن تشوي بين وقت وآخر سرديناً، لها وخصوصاً لحمودة، كأن تدس في مسجلهما الصغير أي شريط تريد، وتستمع الى ما تحب من أغاني الريف المسجلة في أعراس لا تريد ان تنساها، مغنية مع مغنين عمّروا أحلام مراهقتها وشبابها، أو راقصة على ايقاع استسلم له جسدها او ذارفة الدموع على أشياء تبدو لها لا واقعية لروعتها وبعدها..

العيب الوحيد لهذا البيت الذي كان من الممكن أن يقضيا

فيه كل أعوام الغربة هو أنه بلا مرحاض ككل الغرف الأخرى. وكل سكان العمارة الصغيرة يقضون حاجاتهم الطبيعية في مرحاض واحد لا بدَّ من اجتياز الباحة كلها عرضاً لبلوغه.

تضايق سي حمودة من ذلك في أول الأمر، فهو لا يتحمل أن يتفرج الغرباء على حضرية خصوصاً في تلك اللحظات الحميمية التي تعبر فيها الباحة متوجهة إلى المرحاض او عائدة منه. طرح عليها أسئلة كثيرة باحثاً بدقة في اجاباتها عمَّا يمكن ان يعتبر، ولو من بعيد، اهانة أو خدشاً لحيائها او هتكاً لعرضها، ولما تيقَّن من انه لا خطر من ذلك قرَّر ان ينسى الأمر.

إلاَّ أن هذا النسيان لم يدم طويلاً، فلم تكد تنقضي بضعة أسابيع على استقرارهما في البيت الجديد حتى أخذ حمودة يشاهد بأم عينيه أشياء لا يمكنه ان يسكت عنها. الشاب الذي يقيم في غرفة في الطابق الأول تماماً فوق غرفته يراقب دون شك حضرية. فحالما تغادر البيت إلى المرحاض ينزل الدرج بسرعة عجيبة، ويعبر الباحة متوجهاً الى مدخل العمارتين، والغريب في الأمر هو انه يعود في بعض الأحيان تماماً في الوقت الذي تخرج فيه حضرية من المرحاض كما لو أنه على اتفاق معها. والرجل الآسيوي الملامح «الشنوة» كما يسمِّيه حمودة والذي لا يقيم بشكل دائم على ما يبدو في إحدى غرف الطابقين الأخيرين لا يحلو له قضاء تلك الحاجة إلاَّ حين تكون حضرية في المرحاض. ينتصب ابن الكلب بدون حياء او حشمة قرب الباب. ويتمادى في وقاحته أحياناً فيزداد اقتراباً من الباب، وينحني عليه، ثم يبدأ في طرقه متجاهلاً أن مثل هذا السلوك الفظ لا يمكن بأي حال من الأحوال ان يبدر من جار حتى لو كان شنوة.

اكتشف حمودة أيضاً انه في اللحظة التي تندفع فيها حضرية بجسدها الى الباحة وسطل الماء في يدها قاصدة المرحاض تحدث حركة خفيفة في ستائر ومصاريع ومغاليق النوافذ في العمارة الشاهقة الحديثة. وفي أثنائها يلمح وجوهاً لم ينجح أصحابها في إخفائها. وبعد تفكير طويل أخذ حمودة يتساءل عما اذا كان سطل الماء الذي تحمله حضرية الى المرحاض هو الذي يسبِّب تلك الحركة، فقد تذكّر ما سمعه ذات يوم في أحد المقاهي، وهو ان الناس هنا ينظفون أنفسهم بالورق.

ولأن حمودة لا يريد مشاكل في بلد لن يبقى فيه على أية حال سوى فترة قصيرة، وفي الوقت ذاته لا يطيق ان يرى شرفه مطعوناً اختار أن يغيّر السكن. لم يخاصم ولم يشتك ولم يحتج. كل ما فعله هو انه حمل أمتعته، وانتقل الى بيت آخر.

ظلَّ ينتقل من بيت إلى آخر حتى استقر به المطاف في هذه الشقة بإحدى عمارات السوناكوترا، وهي أول وآخر شقة يستأجرها في هذا البلد.

توجد العمارة في حي خطر. ورغم ذلك فهو لم يتمكن من الحصول على الشقة إلاّ بعد عناء وجهد، وانتظار طويل كاد يفقده كل أمل. والحقيقة ان الفضل في ذلك يعود الى حضرية، وحمودة يستغل كل مناسبة للتذكير بذلك بشيء من الافتخار. نعم، لولا الحاجة لظلَّ يعاني من مشكلة الاقامة، فهي أول من حدّثه عن هذه العمارات الشعبية المخصصة للعمال المهاجرين. السوناكوترا. كان حمودة يسمع بهذا الاسم للمرة الأولى منذ ان استقر في البلد. وبالرغم من ان حضرية ردّدته أمامه بصوت مرتفع وببطء شديد ناطقة المقاطع بأقصى ما يمكن من الوضوح والدقة

فإنَّه لم ينجح أبداً في حفظه لغرابته الشديدة كما يقول مدافعاً عن نفسه. وهي التي عثرت في البلدية على مكتب المسؤول عن هذه العمارات الذي لم يستقبلها إلاَّ بعد الحاح شديد. وهي التي وجدت مَن يملأ لها ذلك الكدس من المطبوعات ومَن يساعدها على الاجابة عن اسئلة تبدو لها عجيبة ومَن يرافقها الى مكتب العمدة او مسيو لومير كما تقول الذي حظيت منه بموعد، فقد كانت لا تفهم ولا تتكلم الفرنسية في تلك الفترة.

لم يخامرها ابداً أدنى شك في ما كانت تقوم به. كانت مقتنعة تماماً بأن شقة في السوناكوترا حق من حقوقهما لا ينبغي التفريط فيه، وأنَّ الفخ الوحيد الذي يجب على مَن يريد الحصول على هذا الحق ان يتجنبه هو اليأس. ظلَّت حضرية تعد المطالب، وتتقدم بها إلى البلدية، الواحد تلو الآخر، غير عابئة بما تلقاه من رفض ولا بما يتردّ حولها من قصص واشاعات ولا حتى بما كان يقول حمودة في لحظات انفعاله الى ان استلما ذات صباح رسالة مسجلة من العمدة ذاته تتضمن الخبر المفرح..

الغريب في الأمر ان حضرية لم تُعجب بالشقة في البداية رغم انها تتكون من غرفتين ومطبخ ومرحاض واسع مجهز بحوض مرتفع من الرخام الأبيض لم تشاهد ابداً مثله اذ انها لا تعرف إلاَّ هذا النوع من الأحواض التي لا تتجاوز مستوى سطح الأرض. وللمرحاض سلسلة تتدلى من خزان حالما تسحبها يتدفق من الماء ما يروي كل سكان الهوارب. إلاَّ ان هذا الاحساس سرعان ما تلاشى لما عادت حضرية الى تلك الأشياء الجميلة التي كادت تنساها.

أمَّا حمودة فقد أحب المكان منذ اللحظة التي شاهد فيها

المرحاض الذي أصبح شغله الشاغل منذ ان استلم الرسالة المسجلة، فلم يولِ اهتماماً واضحاً للجيران ولا لحالة الشقة ونظافة جدرانها وأرضيتها، ولم يشتك لا من الشبابيك التي لا تنغلق جيداً ولا من سقف المطبخ الذي غيَّر الدخان لونه، ولا حتى من هذه القطعان من الصراصير التي يقتلها بأحذيته القديمة مثلما كان يفعل لعقارب الهوارب. بعد أعوام، حين بدأت جدران الفيلا التي يبنيها في الهوارب ترتفع صار يسمِّي الشقة حفرة.

وخلافاً للإقامة استطاع حمودة ان يحل مشكلة الشغل بعد أيام قليلة من وصوله إلى باريس. لم يضع وقته في البحث عن عمل مناسب، وانما قَبِلَ اول شغل عُرض عليه، فقد كان يعرف ان كل ذلك مؤقت، ولا بدَّ من تحمله بصبر وهدوء طالما أنَّه يمكّنه من بلوغ الغاية التي غادر من أجلها الهوارب. هو الذي كان يمارس بحماس مهنة تجارة الأبقار المربحة المريحة الحرة متنقلاً بين الأسواق القريبة والبعيدة قَبِلَ دون تردُّد العمل في مطعم تونسي صغير يملكه كهل أصلع وقصير القامة من غمراسن بالجنوب. لم يكن الأجر الذي يتقاضاه في نهاية اليوم الأخير من كل شهر دون أي تأخير مرتفعاً أو مساوياً لما يعرفه من أجور، لكنه كان كافياً لتغطية كل نفقاته.

إلاَّ ان الشيء الذي شجع حمودة على البقاء في ذلك الشغل هو قرب المطعم من بيته وهو أمر أساسي في تلك الفترة الحساسة والصعبة التي تلت مباشرة استقراره في البلد. فقد أدرك حمودة بسرعة انه لا يفهم شيئاً وهو يتأمل خرائط خطوط الباصات وقطارات المترو المعلقة في المحطات، اذ انها ليست شديدة التعقيد فقط، وانما ايضاً تحتوي على اسماء كثيرة يصعب نطقها

ولا بد من حفظ بعضها. منذ ان تشجع واشترى تذكرة ثم نزل ادراجاً لا تنتهي متوغلاً في دهاليز المترو، ومنذ أن شعر بخوف حقيقي وهو يسير في ممرات طويلة موحشة وسط سيل من البشر، ومنذ أن قضى وقتاً طويلاً للخروج من الأنفاق في المحطة التي قرّر ان ينزل فيها بعد دقائق قليلة من ركوبه القطار، منذ ذلك الوقت تيقّن حمودة ان التنقل خلافاً لما كان يتصور مشكلة حقيقية في هذا البلد.

ثمة شيء آخر جعله يزداد تعلقاً بمطعم الغمراسني كما كان يسمّيه الجميع، فبعد أشهر قليلة اكتشف حمودة أن صاحب المطعم الذي يوحي وجهه بالصرامة والقسوة رجل طيّب مثل أغلب أهل الجنوب الذين لم يعرفهم حقاً إلاّ في بلاد الغربة. أخذ يسأله بين وقت وآخر عن حاله، ثم بدأ يهتم بشكل واضح بظروف عيشه، وذات يوم قال له انه بإمكانه ان يحمل الى بيته كل ما يفضل من الطعام النظيف طبعاً بعد أن يأخذ هو لعائلته ما تحتاجه.

كان عملاً سهلاً وبسيطاً. خدمة نساء كما يردّد حمودة في البداية بشيء من السخرية. غسل الخضروات والثمار التي يشتريها كل يوم المعلّم من السوق القريبة وازالة ما تعفن منها وهو كثير لأنها تُباع بنصف أثمانها. التثبت من أن طابع «لحم حلال» موجود، فالمعلّم شديد الحرص على ألاّ يدخل محله أي لحم لم يذبح طبقاً للشريعة الاسلامية. وهو يعوّل كثيراً على حمودة في هذا الأمر الحساس منذ ان لاحظ ان الطباخ الذي كان يقوم بهذه المهمة ينسى أحياناً ذلك، او ينجزها بسرعة أو لا يولي الأمر اهتماماً كافياً يمكّنه من اكتشاف الطوابع المزيفة التي يلجأ اليها

بعض الغشاشين لترويج لحومهم المحرمة. تقشير سطول كاملة من البطاطا فأغلب الزبائن من الأجانب الذين تقودهم خطاهم الى المطعم يطلبون بطاطا مقلية. غسل الصحون والملاعق والطناجر والمقالي الذي اكتشف فيه لذة لم يكن يتصورها اطلاقاً. يملأ الحوض الكبير بالماء الساخن، ويسكب فيه ما يكفي من هذا السائل الأصفر الناعم الذي تفوح منه رائحة الليمون. وعندما ترتفع رغوة الصابون يدس أصابعه المفتوحة ببطء في الحوض، ثم يغمض عينيه للحظات مستسلماً لدفء ونعومة ذلك الخليط من السوائل.

هناك شيء آخر يلتذ حمودة بفعله في ذلك المطعم الصغير، وهو تقطيع اللحم، وتبلغ هذه اللذة ذروتها حين يكون اللحم خرفاناً او دجاجات أو أرانب كاملة. يفتح حمودة بطونها بأقصى ما يستطيع من الاتقان، ويفرغ محتوياتها التي تجتذبه دائماً بأشكالها وألوانها المثيرة بعد ان يتأملها طويلاً. ثم يبدأ في البحث عن المفاصل قبل البدء في التقطيع.

أحياناً يساعد المعلم في الصالة. يحمل الأطباق الى أصحابها، أو يجمع ما بقي على الموائد من صحون وادوات وفضلات. يفعل ذلك مكرهاً حين يرى أنه لا مفر منه في الأوقات التي تتكاثر فيها الطلبات على المعلم بحيث يصبح عاجزاً عن تلبيتها بمفرده، وهو أمر لا يحدث لحسن حظه سوى مرتين او ثلاث في الشهر.

وليس العمل في حد ذاته في الصالة هو الذي جعل حمودة يفضل بكثير البقاء في المطبخ، وانما شيء آخر ظلّ سراً ولم يفشه لأحد، وهو أنه يخشى ان يشاهده أحد ممَّن يعرفه، ويروّج الخبر حسداً أو شماتة حتى يصل الى الهوارب. حمودة بن مصطفى

يشتغل خادماً في مطعم!! هذا ما كان يرعبه كلما استنجد به المعلم في الصالة.

هذا الخوف من أن ينفضح أمره هو الذي دفع حمودة الى التفكير للمرة الأولى في إمكانية التخلّي عن هذا الشغل، فقد أخذ يتفاقم منذ أن بدأ المعلم يتغيب للتداوي تاركاً كل العمل في الصالة الى حمودة. كانت غيابات قصيرة في البداية. بضع ساعات في الصباح او في المساء أي ما يكفي لإجراء بعض الفحوصات. وفيما بعد أخذت تطول وتستمر أياماً وأحياناً أسابيع كاملة خصوصاً حين يضطر المعلم ان يلازم الفراش.

أدرك حمودة وهو يتنقل بين الموائد انه لا يستطيع خلافاً لما كان يعتقد ان يمارس بشكل دائم عملاً مهيناً كهذا. انه بإمكانه ان يخدم بين وقت وآخر الزبائن ويتحمل ملاحظاتهم المزعجة وحتى اهانتهم معرضاً نفسه للفضيحة. أمّا ان يفعل ذلك كل يوم فهذا مما لا يطيقه حتى لو استعان بكل ما لديه من طاقة على الصبر والهدوء.

اقترن هذا الخوف بشيء آخر لم يكن يخطر على باله اطلاقاً، وهو أنَّ الطبَّاخ الذي كان يبتسم له كثيراً ولا يتكلم إلاَّ نادراً لا يحبه، فهو رجل لئيم ومنافق وأناني. لما بدأت غيابات المعلم تطول استلم أمور المطعم بحكم قدمه في المهنة وقرابته للمعلّم وخصوصاً معرفته باللغة الفرنسية وهي ضرورية جداً لمخاطبة الزبائن الأجانب. تخلّى عن قناعه وأخذت حقيقته تنكشف.

تغيّرت لهجته دفعة واحدة، وصارت باردة وحادة في أغلب الأحيان. ونظراته أصبحت توحي بعدم الرضى والنفور والكره.

أمّا سلوكه فقد تبدّل هو أيضاً تبدلاً مفاجئاً ليكشف عن قدر هائل من اللؤم والغرور. وقد لاحظ على ما يبدو ان حمودة لا يحب الصالة، فصار يرسله اليها بسبب وبدون سبب. وحين تكون شبه فارغة يأمره أحياناً بأن يعيد تنظيف الموائد او ترتيب أواني الماء والكؤوس وطاسات الهريسة والمناديل الورقية او بكل بساطة الوقوف كالعمود بالقرب من مدخل المطعم لاجتذاب الزبائن او الاجابة عن كل ما يطرحونه من أسئلة حول الأطباق التي تُعد في المطعم.

لحسن حظّه تزامنت هذه المشكلة التي صار حمودة يسمّيها فيما بعد بشيء من المزاح المحنة الأولى مع العثور على شغل آخر. فبعد أيام تعذّب خلالها وحيداً إذ أنّه لم يصارح حضرية بكل ما كان يحس به خوفاً من أن تكشف ان زوجها يشتغل مجرد خادم في مطعم صغير، أيام مرَّة لم يعرف خلالها سوى الخوف والاهانة والحيرة انحلت مشكلته بسهولة مذهلة لا يمكن ألاّ تذكّره بما كانت تدعو له به أمّه دادا العكري في اعوامها الأخيرة.

لم يكن الشغل الجديد مريحاً ولا سهلاً، وقد بذل حمودة جهداً هائلاً خصوصاً في البداية للتعوُّد عليه والتأقلم مع هذا العالم المعقد الذي كان يجهله حقاً، عالم البناء، لكنه كان يمكّنه من الحصول على راتب يفوق بكثير ما كان يتقاضاه في مطعم الغمراسني، كما انه سمح له، وهذا هو الأهم، بتعلم مهنة مطلوبة سيمارسها حمودة طوال اقامته في هذا البلد إلاّ في فترات البطالة التي تكاثرت في الأعوام الأخيرة، وهي تشغيل أو قيادة أغلب الأجهزة والآلات الميكانيكية التي تُستخدم في البناء.

بعد فترة من التدرُّب انتقل حمودة من أعمال يدوية مثل الحفر او قطع الحديد والخشب او تكسير الحجارة الى التحكُّم في آلات غريبة ومعقّدة لم يكن حتى يسمع بأسمائها. يفعل ذلك باتقان لاحظه اكثر من معلّم، وأكسبه قليلاً من الشهرة في أغلب ورشات البناء التي اشتغل فيها.

أصبح يدير بسهولة خلاّطة الاسمنت. وبعد فترة قصيرة صار بإمكانه أن يتحكّم في هذه الآلة الغريبة التي يسمُّونها ثقّابة. يمسك جيداً بمقبضها، ويوجه عمودها المستدق المدبّب او منقارها كما يقول مستقيماً نحو الأرض. وبعد ان يُباعد ما بين قدميه ويسدّ آذانه بإحكام يضغط على الآلة بكل جسده فينغرس العمود في الأرض الصلبة بسهولة تولّد في نفسه أحاسيس تشبه الفرح. كان ثمة شيء من لذة اللعب وخفته ونزقه في ذلك الفعل. وكان هناك ايضاً إعجاب غامض وخفي بما في هذه الآلة من طاقة على الهدم والتدمير.

إلاَّ أنَّ أهم ما أنجزه في هذا المجال هو قيادة الجرّافة هذه الآلة العجيبة حقاً في شكلها التي كانت تبعث في نفسه الرهبة. والغريب في الأمر هو أنه تعوَّد عليها وألفها بل وأحبّها في وقت أقصر بكثير مما كان يتوقع، وبنفس السهولة التي تعلَّم بها قيادة آلات أقل تعقيداً.

قبل ان يصعد إليها يحدّق فيها صامتاً، ثم يطوف بها متطلعاً الى عجلاتها الضخمة والى أسنانها القوية القادرة على حفر هوة أو هدم جدار في وقت قصير. يفعل ذلك دائماً كما لو أنَّه يمارس طقوساً للإحتماء من خطر مجهول. فبالرغم من أنَّه ألفها وأحبّها فقد ظلَّ في أعماق نفسه يحذرها قليلاً ولا يطمئن إليها اطمئناناً كاملاً.

في بعض الأحيان يتمكن حمودة من السيطرة على هذا الاحساس، لكن ما تقوله له حضرية بين وقت وآخر يولّده فيه من جديد. حاول عدة مرات أن يقنعها بأن تنسى المسألة، لكنها كانت تستغل كل فرصة لإثارتها، وتعود اليها بطرق مختلفة لتذكّره بأن أي انسان عاقل مؤمن لا يمكنه ان يطمئن الى مثل هذه الآلات لأن الميكانيك كما تقول خطير دائماً.

- 7 -

المفكرة مفتوحة الآن على المخدة. لا أراها لأن الغرفة غارقة في ظلام كثيف منذ ان أطفأت الضوء لأريح عيني، لكني أعرف أنها هناك. أنهض متثاقلاً. أفتح النافذة، وأمد رأسي. روائح أطعمة. هدير سيارات. أصوات بشرية. أتراجع برأسي متطلعاً الى السماء التي بلا نجوم. وقبل أن أعود الى الفراش أملأ رئتي بهواء الليل.

ببطء شديد أجر جسدي مقابل النافذة المفتوحة، ثم أغمض عيني فأراه. عادل الطالبي لا ترتسم صورته في ذهني دفعة واحدة كما يحدث الأمر حين أتذكر سعاد غرس الله او حمودة الأشهب أو حضرية، وانما تتشكل شيئاً فشيئاً. ألح على الذاكرة بحثاً عن ملامح وتفاصيل دقيقة. لون العينين. حجم الأنف. شكل الخاتم الذي كان يضعه في خنصره. تزداد الصورة وضوحاً، ثم تكتمل. أتساءل بعدما أفتح عيني عمَّا اذا كان قد أخفى شيئاً حين روى لي ما حدث له في المطار، شيئاً لا يتعلق بالصفعات واللطمات والشتائم والاهانات ولا بالأسئلة التي أمطروه بها ولا بالرجل الذي يوزع منشورات تحتوي اخباراً خاطئة وخطرة في أوساط

المهاجرين مزودي الوطن بالعملة الصعبة وشاحنات بيجو 404، وانما بمؤخرته، نعم مؤخرته التي تفرّج عليها الجميع أثناء استنطاق لم يسغرق لحسن الحظ وقتاً طويلاً.

لم يكن عادل هادئاً حين التقينا للمرة الأولى بعد أيام قليلة من تلك المخابرة التي اكتشفت فيها ان ايقافه في المطار لم يدم سوى ساعتين. كان ينتابه توتر لم يفلح في اخفائه عنّي. انتبهت لذلك منذ اللحظة التي سحب فيها الكرسي بحركة حادة ليجلس عليه. أحسست بانزعاج خفيف، واستغربت ذلك اذ انه هو الذي أبدى رغبة شديدة في لقائي. كان لا بد أن أراك لأروي لك ما حصل لي في المطار يقول عادل وهو يفرك أصابعه ويبتسم ابتسامة عريضة محاولاً السيطرة على ارتباكه. ينبغي ان أعترف بأن ذلك اللقاء كان مهماً وضرورياً الى حد ما بالنسبة لي ايضاً. منذ تلك المخابرة التي فاجأني فيها صوته لم تفارق صورته ذهني. كل يوم يتراءى لي ذلك الوجه الطويل الضامر، وشيئاً فشيئاً بدأت تنمو داخلي رغبة حقيقية في رؤيته، لا لأن الانطباع الذي كوّنته عنه خلال تلك الرحلة كان جيداً اذ لا أحد باستطاعته ان يعجب او يتعلق او حتى يستلطف رجلاً غريباً يقهقه بسبب مزحة عادية جداً في طائرة مليئة بالركاب على ارتفاع 33 ألف قدم، وانما لسبب اخر كان غامضاً في البداية، ثم أخذ يتضح تدريجياً حتى صار مقنعاً. كنت أشعر بحاجة الى ملاقاته لأتأكّد من أن صاحب الصوت الذي تناهى إليّ خلال تلك المخابرة هو عادل الطالبي ذاته. كنت أريد أن أُحدّق في ذلك الوجه وذلك الشارب وتلك الشفة السفلى لأتحرّر من الأحاسيس الموجعة التي أفسدت عليّ عطلتي، وأتخلص نهائياً من حادثة المطار وكل ما ولدته في نفسي من مخاوف وأوهام وتخيلات.

لا بدَّ أن أعترف ايضاً بأنّني كنت أكن لعادل الطالبي شيئاً من الاحترام رغم ذلك الانطباع غير الجيد الذي ولده فيّ خلال تلك الرحلة. نعم، منذ ان روى لي عادل خلال المخابرة تفاصيل استنطاقه في مكتب الشرطة بالمطار، واصفاً أثر ما تعرّض له من ضرب وشتم، ومركّزاً على مشهد خلع ملابسه وخصوصاً سرواله وسليبه واقبال رجال الشرطة على التفرُّج على مؤخرته أصبحت أنظر اليه بشيء من التقدير وان كنت أشك في انه روى بالتفصيل كل شيء كما حدث تماماً. أعرف ان عادل رجل حساس، ولذلك كنت أتساءل في البداية عمَّا اذا كان قد فقد تماسكه خلال الاستنطاق فأخذ يبكي ويستعطف رجال الشرطة، وأحياناً أذهب بعيداً فأتساءل عمَّا اذا كان شرطي فظ قد اقترب من مؤخرته فلامسها وداعبها، أو بكل بساطة دس فيها أصبعه.

الآن لا أشعر بأي تأسف أو ندم على استجابتي لرغبته الشديدة في لقائي، بل استطيع ان أقول انني راضٍ الى حد ما عن علاقتي بعادل رغم ما تنطوي عليه من تناقضات، فقد اكتشفت خلال الجلسات التي جمعتنا خصوصاً في غرفته الواسعة بعد لقاءات الخميس القصيرة في ذلك المقهى التونسي الصغير انه رجل يستحق ما يكفي من الاهتمام رغم أخطائه وعيوبه الواضحة. لولا تلك المخابرة وذلك اللقاء الذي اكتشفت خلاله حقيقة ما حدث في المطار لبقي عادل الطالبي في ذهني قهقهة في طائرة تطير على ارتفاع 33 ألف قدم وخليطاً من اصبع وخاتم وانف وشارب لا يناسب الوجه الذي يحمله. ولولا عادل الطالبي لما تردّدت على ذلك المقهى حيث تعرَّفت على الحاج حمودة.

في فترة ما لم نعد نلتقي عصر كل خميس، وانما ليلة كل

سبت يوم عطلته الاسبوعية. أذكر انه هو الذي غيّر الموعد لنسهر بين وقت وآخر في بيته. هكذا يسمّي غرفته في الطابق السادس من عمارة قديمة جدرانها الرمادية متصدعة ودرجها الخشبي متشقق في مواضع عديدة ومدخلها المبلّط بالاسمنت تنتشر على ارضيته، حول ما بقي من علب البريد، أكوام اعلانات وقوارير نبيذ وبيرة فارغة وأحياناً أكياس قمامة مفتوحة. عمارة تقع في قلب حي شعبي غير آمن خصوصاً في الليل لا تهدأ فيها الحركة ولا يتوقف فيها الضجيج طوال الوقت الذي أقضيه فيها.

في كل مرة يدعوني عادل الى السهرة في بيته. يفعل ذلك بحرص واضح كما في المرة الأولى فلا شك انه لاحظ انني لست من الذين يقبلون بسهولة الذهاب الى بيوت الآخرين، وأنّني أحتاج دائماً الى ما يثبت انهم يرغبون حقاً في التقائي. قبل الموعد بيومين يخابرني. في غالب الأحيان يفعل ذلك صباحاً إذ انَّ عادل يحب على ما يبدو التحدث في التلفون في مثل هذا الجزء الحميمي والهش الملتبس من النهار الذي اعتبره غير مناسب لا لمخابرة الآخرين ولا لتلقي مخابراتهم.

حينَ يلاحظ انني غير متحمس او متعب لأنّني لم أنم جيداً بسبب ما انتابني من هواجس وأحاسيس كتلك التي استحوذت عليّ منذ ان وضعت رأسي على المخدة يوم قرّرت بعد تفكير طويل ومضن ألاَّ أذهب فوراً كما يأمرني في رسالة قصيرة زوج أختي الذي يعشق التنزه في المقابر الى أكبر محل لبيع قطع غيار شاحنات بيجو، وأشتري دينامو «جديد ينفر» كما يقول، كلّفني ذلك ما كلفني، ثم أضعه في علبة من الكرتون المقوّى، بعد أن ألفّه بعناية شديدة، وأرسله له في «البوسطة».. عجل يقول في

نهاية الرسالة اذ لا أحد في العائلة، لا الوالد المرحوم الذي كان يحب كثيراً ركوب الشاحنات والسيارات ولا اختك التي لا تتوقف عن خدمتك حين تزورنا، ولا «العبد لله» يقصد نفسه، ولا أمك التي ازدادت صحتها تدهوراً وأصبحت تكلم نفسها في الحقل كما في البيت مردّدة احياناً بصوت مرتفع «لن أتركك تعود في المرة المقبلة»، نعم لا أحد منهم يقبل ان تظل شاحنتنا التي كانت في فترة ما أجمل شاحنة في العلا معطلة منذ ان تكسَّر الدينمو، ساكنة لا تتحرك مثل ناقة معقولة نائخة، معرّضة لاستهزاءات وتهكمات دواوير العمايدية والثماينية والجريرات. . حين يلاحظ عادل ذلك، وهو ما يحصل غالباً منذ تبادل الكلمات الأولى اذ ان حدسه قوي، يلح عليّ من دون ان يثقل بلهجة فيها شيء من التوسل. أحياناً أتساءل عمَّا اذا كان عادل يفعل ذلك لأنه يخاف الوحدة ولا يتحمل أن يواجه ذاته خصوصاً ليلة السبت يوم عطلته الاسبوعية.

منذ السهرة الثالثة التي تغلبنا فيها على الخجل والحذر والارتياب، وتخلصنا من التكلف والتحفظ ومن كل تلك الأحاسيس والانطباعات الصغيرة التي ظلت تخيم على علاقتنا رغم الجلسات الكثيرة التي جمعتنا في المقاهي، أخذت أفكّر في شيء لم يخطر ببالي ابداً من قبل، شيء غريب لا أدري كيف بدأ ينمو داخلي. منذ تلك السهرة اختفى تساؤلي عن خوف عادل من العزلة ومواجهة ذاته، وحلَّ محله سؤال آخر لم أفلح في طرده من ذهني رغم ما كان يسبِّب لي من عذاب نفسي. عادل. . هل هو شاذ؟ نعم. هل هو شاذ جنسياً؟

مبدئياً لا أستطيع ان أُجيب إلاَّ بالنفي، فعادل رجل عادي

سويّ، فلا شيء لا في سلوكه ولا في مظهره ولا في جسده يوحي أو يدل بشيء من الوضوح على انه شاذ. ولكن ماذا أفعل بهذه الأشياء الصغيرة التي تجمعت لديّ بمرور الأيام دون أن أعيرها أي اهتمام، ثم اتخذت فجأة شكلاً ومعنى في ذلك السؤال الذي كان يحاصرني مثل شيطان؟ أشياء دقيقة متفرقة متباعدة تتساقط من أمكنة مختلفة غامضة سرّية مثل حبات دقيقة من الرمل وتستقر في الذهن دون انتظام وكيفما اتفق. فجأة تبرز طبقة خفيفة لها شكلها وطبيعتها ودلالتها. فجأة ينبجس المعنى واضحاً وضوحاً لا يخطئه العقل فتحضر صورة الشارب فوراً في الذاكرة. لماذا يصر عادل على عدم حلقه رغم انه لا يناسب اطلاقاً وجهه الطويل؟ هل يغطّي به هذا الشذوذ؟ وهذا الاحساس بأنّه شهواني الذي يقترن في ذهني بتلك الشفة السفلى الممتلئة ألا يزيد المعنى وضوحاً؟ ثم ماذا يعني ان يكون عادل دائماً وحيداً؟ ماذا يعني ان يعيش رجل في مقتبل العمر ليس دميماً رغم شفته المتدلية، ويمتلك وجهه الطويل رغم ذلك الشارب نوعاً من الجاذبية، رجل حساس ليس صعب المعاشرة على ما يبدو، يستحق شيئاً من الاهتمام رغم عيوبه، بدون امرأة؟ ثمة شيء آخر حيَّرني طويلاً. لماذا لا يبدي عادل اهتماماً بالنساء مثلي ومثل غيري من الرجال؟ لا أذكر أنّني لاحظت انه يتطلع خلال الجلسات الكثيرة في المقاهي الى النساء بشكل لافت. لا أذكر ايضاً انّه حدّثني ذات يوم عن امرأة يحبها أو يشتهيها او حتى تربطه بها علاقة صداقة او زمالة.

الغريب في الأمر ان ذلك السؤال الذي كان يؤلمني اختفى بالطريقة ذاتها التي نما بها. لا أدري كيف حدث ذلك. كأنّه كان

لا بدَّ ان أغوص في ظلمة تلك الأحاسيس والأفكار وأُلامس القاع لكي أصعد من جديد، وأرى عادل كما كنت أراه قبل ان يحاصرني ذلك السؤال خلال السهرة الثالثة. وفي بعض الأحيان يخيل لي ان ما خلصني من ذلك السؤال يكمن في التحول الذي طرأ على علاقتنا في مرحلتها الثانية، فقد أصبح عادل أكثر تلقائية وانفتاحاً عليّ، بينما صرت انا أكثر اقتراباً منه وأكثر فهماً وقبولاً لما كان يبدو لي غريباً او غير عادي في سلوكه.

«تفضل.. تفضل» يقول لي عادل بعد أن يفتح باب غرفته، ويتراجع الى جدار الممر الضيق القصير ليفسح لي المجال. «هذه هي واحتي التي حدثتك عنها» يضيف بلهجة لذيذة لم يفلح الزمن في محو ما فيها من لهجة الجريد وتحديداً توزر حيث وُلِدَ وأمضى جزءاً من طفولته قبل ان ينزح مع أبيه وأمه وأختيه التوأمين الى العاصمة، ثم يهاجر بعد أعوام كثيرة الى مونبيلييه ثم باريس لدراسة الطب الذي لم يسمح له بدراسته في تونس ظلماً ولأنه فقير كما يقول.

أخطو داخل الغرفة الواسعة في حذر وبطء، ثم أتوقف في وسطها تماماً، وأتطلع حولي، بينما يدعوني عادل الى الجلوس وعيناه تلتمعان بفرح حقيقي نادر لا يشبهه سوى الفرح الذي أراه في عيون الحاج والحاجة حين يفتحان لي باب شقتهما الصغيرة ويرحبان بي طويلاً كلما أديت اليهما زيارة كما لو انهما يستقبلاني للمرة الأولى.

كانت الغرفة مفاجأة حقيقية بالنسبة لي. كل ما فيها يختلف عمَّا نجده عادة في هذا النوع من الغرف التي يقبل على استئجارها طلاب أو أرامل او عزاب ابديون. لا طاولة ولا سرير

ولا كراسٍ ولا كنبة. لا شيء فيها من الأثاث الشائع سوى مائدة مستطيلة قليلة الارتفاع يستعملها كطاولة أحياناً. زراب، أكلمة، عباين، مخدرات كثيرة ذات ألوان وحجوم مختلفة، بوفات جلدية، وحتى الملابس فإنَّه يضعها في صندوق خشبي كبير اشتراه من توزر. أمَّا أواني الطبخ والطعام المرتبة بجانب الموقد الغازي الصغير في ركن من الغرفة قريب من النافذة الوحيدة يسمِّيه عادل المطبخ فهي في أغلبها أوان تقليدية من الجريد. وفي ركن آخر كتب كثيرة بعضها مكوم، وبعضها الآخر مرتب في عرمة عريضة يكاد ارتفاعها يبلغ أعلى النافذة. روايات ودراسات في التاريخ والطب أغلبها بالفرنسية ومصحف بالرسم العثماني اشتراه عادل من مكتبة عربية في بلفيل قادته قدماه اليها صدفة لأنه أُعجب اعجاباً شديداً بكل ما فيه. عناوين السور، الخط، الفهارس، علامات الوقف، ارقام الآيات، وخصوصاً سورة الفاتحة التي ينوي استنساخها كما هي بألوانها الجميلة المتناسقة وتكبيرها، وربَّما تعليقها على باب ما يسمِّيه عادل بيت الراحة وهو عبارة عن مكان يتسع لشخص متوسط الطول والعرض، ويحتوي على دش قديم وصدىء ومرحاض بلا حوض، ولا غطاء ينسكب فيه الماء كلما فتح الدش. ويفصل بين هذا المكان والممر الضيق القصير باب واطىء يبدو أنه أُضيف منذ فترة غير طويلة، ويتكوّن من شرائح من الخشب رقيقة ومتلاصقة، ومطلية بدهان في لون التراب.

ليس جمال المصحف هو الشيء الوحيد الذي دفع عادل الى شرائه، وانما هناك سبب آخر لا يخطر على بال أي انسان في البداية، سبب اكتشفته شيئاً فشيئاً بقليل من الاستغراب، وهو

ايمانه. عادل لا يتحدث ابداً عن تديّنه. كان واضحاً انه يعتبره امراً ذاتياً حميمياً لا يعني سواه. كان ايضاً لا يصلّي ولا يصوم، وكان لا يتورع أحياناً عن القيام بأمور ينهي عنها الشرع كما يقول المؤمنون كأن يشرب الخمر ويأكل شريحة من لحم الخنزير في ما يتناوله من سندويشات. لكنّي واثق من أنّ إيمانه صاف وحقيقي. يبدو ذلك في بعض ما يقوله او يفعله ببساطة وتلقائية. لاحظت انه يحب أن يستغفر الله حين يتعب من الكلام الذي يلتذ به فيصمت. لاحظت أيضاً انه يبسمل قبل تناول الطعام ويحمد الله على نعمته عندما يفرغ منه. وفي الفترة التي تعمقت فيها علاقتنا كان يحلو له كلما التقاني أن يردّد بمتعة واضحة السلام عليكم قبل أن يخلّص يدي من يده.

كان عادل يعرف أيضاً كل عام تواريخ الأعياد الدينية واليوم الذي يحل فيه شهر رمضان. يتابع ذلك باهتمام، ويتحقّق منه بالاعتماد على ما يسمعه في ما يلتقطه من اذاعات عربية بمذياعه الضخم ذي الهوائيين الكبيرين المركون دائماً بالقرب من الكتب المكومة، وسط مجموعة من ورود رمال متقاربة الحجوم تبدو لي احداها شبيهة بقبرة. يرن الهاتف في وقت لا انتظر فيه أن يرن. ارفع السماعة فأُفاجأ بعادل يقول لي «عيدك مبروك ثم يقترح عليّ أن أرافقه لمشاهدة فلم «الرسالة الذي يعرض طوال يوم عيد الأضحى في قاعة بباربيس، او يخبرني ان شهر رمضان سيبتدىء بعد يومين، او يدعوني الى تناول الغداء يوم عيد الفطر في مطعم جامع باريس.

وخلافاً لما كنت أتصور في البداية، لم تتغير علاقتي بعادل حين صرت واثقاً من ايمانه، بل أستطيع ان أقول ان هذا الجانب

يمنحه مزيجاً مستحباً وجذّاباً من الغموض والعمق خصوصاً انه لم يمنعه من أن يظل منخرطاً في الحياة مقبلاً على مباهجها وملذاتها، باستثناء النساء طبعاً.

ثمة أشياء أخرى في غرفة عادل كانت تجتذبني. أشياء تُولد في نفسي احساساً عميقاً بالراحة والاطمئنان لم أنعم به إلاّ نادراً في كل البيوت التي وطأتها قدماي منذ أن أقمت في هذه المدينة، وتجعل من هذا المكان المعلق في الطابق السادس من عمارة قديمة متصدعة الجدران واحة حقيقية رغم وجودها في قلب حي شعبي خطر لا ينقطع ضجيجه ولا تهدأ حركته.

الاتساع الذي يتيح للأرجل ان تأخذ مداها وللأجساد ان تسبح في الفضاء، دون ان تصطدم بغيرها. اتساع شبه نادر في مثل هذه الغرف. وهو لا يعود الى كبر المساحة فقط وانما ايضاً الى هذا الفراغ الذي عرف عادل كيف يحافظ عليه حين رفض أن يملأه كما يفعل الآخرون عادة بما يلزم وما لا يلزم من الأثاث الشائع. الجدران النظيفة المطلية بدهان ابيض مريح نادر هو الآخر في مدينة أغلب جدرانها رمادية كئيبة. جدران ملساء عارية غير مكسوة مثل جدران غرفتي بذلك الورق الملون الذي لا أحبه، لا شيء عليها سوى قائمة بأسماء التمور وأنواعها في الجريد تقابلها صورة ملوّنة كبيرة لغابة نخيل وسط كثبان من الرمل كتب تحتها بالفرنسية: دوز، بوابة الصحراء.

في الزيارات الأولى أقف طويلاً أمام قائمة التمور المرتبة ترتيباً أبجدياً تماماً كالأسماء التي تعج بها مفكرتي المفتوحة الآن على المخدة. أنتقل من نوع إلى آخر، وأحياناً أتلو بصوت مرتفع ما يبدو لي غريباً من الأسماء. أصباع عروس، بيض احمام، ترمة

خادم، ثرملاية، خلط ايهود، خشم احمار، دقلة ناقة، ذكر احمار، طنطبشت، مصران بهيم، نفاخ زبور، علي المسكين، علبوزي، فرملة، فحل، قصبي هبيل، سنين مفتاح، وذنين جحش... اسماء لا يمكن أن أنساها لأنّني قرأتها بتعجب عدة مرات بعد ان سجلتها في دفتر لا أزال أحتفظ به الى حد الآن.

يضحك عادل قبل أن يقترب منّي ليقول بلهجة متحمسة «هناك اكثر من مئة.. نعم مئة نوع من التمر في الجريد. في كل مرة يفعل ويقول ذلك بنفس الحماس كما لو انه واثق تماماً من أنّني لم أستوعب كلامه في المرات السابقة. يضيف وهو يشير باصبعه الى جدول الدال» الدقلة وحدها ستة عشر نوعاً.. دقلة مباركة، دقلة حسن، دقلة عيشة، دقلة محمد، دقلة جنات.. أغلب الناس لا يصدّقونني حين أقول لهم ذلك لأنهم لا يعرفون من كل تلك الأنواع سوى دقلة نور المشهور حتى في فرنسا.

أحياناً أترك قائمة التمور، وأتوجه إلى الممر الضيق لأُلقي نظرة عابرة على تحف وتذكارات صغيرة مرتبة فوق رف خشبي صغير مثبّت في الجدار. منفضة جميلة من الفخار. قنديل، صحن من المعدن نقش عليه اسم عادل كاملاً وتاريخ انجازه. قنينة تحتوي على رمل من الصحراء. قناع جلدي أسود. علبة حلي. مرآة مستديرة. جمل نائخ من المعدن. بروش في شكل عقرب أصفر. مرش. مصباح بنفسجي يحتوي على عطر.

كان العشاء الذي يعدّه لي عادل أحياناً جيداً وقمقوم فعلاً كما يقول وان كان يتكوّن عموماً من طبق واحد، فعادل يحب الطبخ ويجيده ايضاً. والأغرب من كل ذلك أنّه يعرف الأطعمة والخمور الفرنسية معرفة تكاد تكون مثل معرفته بأنواع التمور في

الجريد. نعم، عادل ابن توزر، عادل المؤمن الذي يستغفر حين يتعب من الكلام ويبسمل قبل تناول الطعام، عادل المولع بتواريخ الأعياد الدينية، يستطيع ان يحدّد ما يتصف به نبيذ مثل السانت ايمليان وطبق مثل بط بالبرتقال..

كنت أذهل حين أستمع اليه وهو يتحدث عن هذه الأطعمة والخمور مقارناً بينها وواصفاً ما يميز طعم بعضها عن بعض. إلاّ ان ذلك الذهول سرعان ما تلاشى عندما علمت أن عادل اشتغل لفترة طويلة في المطاعم والمقاهي غاسل صحون وعامل تنظيف بل حتى مساعد طباخ في مطعم جزائري قبل ان ينتقل الى مهنة الحراسة في الفنادق التي كان يمارسها حين كنت على علاقة به.

لم يكن عادل يجيد فقط طبخ الطعام وانما كان يحسن تقديمه ايضاً. يفعل ذلك بدقة تدل على أنّه يولي الأمر ما يستحق من اهتمام وعناية. يضع المائدة قريباً من الركن المقابل لركن الكتب، ويكوّم حولها المخدات. وأول شيء يأتي به هو قنينة الماء المعدني اذ لا قيمة لطعام بدون ماء كما يقول.

حين يدعوني الى الجلوس يكون كل شيء جاهزاً، وفي المكان الذي ينبغي أن يكون فيه. الملاعق. السكاكين. الملح. الكؤوس. المناشف. صحن الهريسة. سلة الخبز.. في بعض الأحيان يخيّل إليّ وأنا أراقب حركاته ان عادل الذي أراه أمامي يختلف كثيراً عن ذلك الرجل الذي عرفته في الطائرة أو جلست معه عدة مرات في ذلك المقهى التونسي الصغير، وأنّه شخص آخر لا علاقة له به.

طوال الفترة التي قضيناها معاً لم ينقطع عادل عن الدراسة، لكنه كان يفعل ذلك بلا انتظام ولا حماس. كان واضحاً ان ما

يعنيه ليس الشهادات، وانما ان يتسجل كل عام في إحدى الكليات لكي لا تنقطع صلته بهذا العالم. الأعوام تمضي والعمر يقصر، والرغبة في الدراسة تتناقص.

كل شيء بدأ يفقد طعمه حين انهار حلمه بأن يصبح طبيباً تحقيقاً لرغبة أبيه وانتقاماً له من أعوام الفقر والحرمان والألم، ذلك الحلم الكبير الذي لولاه لما هاجر الى فرنسا ولما عانى ما عانى من صعوبات وأتعاب ولما مارس ما مارس من مهن. منذ الأشهر الأولى في مونبيلييه اكتشف عادل ان دراسة الطب تختلف عمَّا كان يتصوره اذ انها تبدو له مملة جافة تعتمد كثيراً على الحفظ والتلقين ولا مجال فيها للتفكير، وهو أمر لم يعد يحتمله منذ أعوام الثانوية. وفي محاولة للتخلص من آثار هذا الاكتشاف الذي فوجيء به حقاً، انتقل الى باريس. إلاَّ ان ذلك لم يكن مجدياً، فقد ازداد اقتناعاً بما اكتشفه في مونبيلييه، بل أصبح متأكداً من ان مهنة الطب لا تناسب اطلاقاً طبعه فضلاً عن أنها صارمة مضبوطة لا مجال فيها للابتكار.

منذ الجلسات الأولى التي جمعتنا في الغرفة لاحظت ان عادل لا يحب الحديث عمَّا درسه بعد انهيار حلمه الكبير، وان كان يفعل ذلك بين وقت وآخر بشكل سريع كما لو ان دراسته قد توقفت منذ ان قرّر هجر مجال الطب نهائياً. ربما لهذا السبب لم أعد اذكر ماذا كان يدرس في تلك الفترة، وكل ما أذكره هو انه كان حريصاً على ان يتسجل كل عام. أتذكر ايضاً نتفاً مما كان يرويه لي احياناً عن طلاب وأساتذة غريبي الأطوار في الكليات التي كان يتردد عليها.

عندما ننتهي من تناول الطعام يجر عادل المائدة ويتركها

بجانب الموقد، ثم يأتي بعلبة صغيرة من دقلة نور، ويضعها امامي مفتوحة قبل ان يكوّم المخدات ويستند اليها برأسه، منزلقاً بباقي جسمه على ما يغطّي أرضية الغرفة من أكلمة. يشبك أصابع يديه قبل ان يضعهما على أعلى بطنه، ثم يشرع في حمد الله على نعمته وفضله. أتوقف عن الكلام لكي لا أفسد عليه حمده وأستلقي بدوري على ظهري، ثم أصغي اليه وأنا أتطلع خلسة الى وجهه فيبدو لي من تلك الزاوية في كل مرة مختلفاً عمَّا شاهدته في المرات السابقة. وحين يفتح عينيه اللذين يغمضهما في غالب الأحيان حالماً يلقي برأسه على ركام المخدات ويبدأ في حمد الله أستدير بسرعة، وأشرع في التطلع الى اثاث الغرفة.

بعد وقت قصير يتوقف عادل عن الحمدلة. يصمت للحظات طويلة وهو يتطلع الى السقف بعينين مفتوحتين تعكسان ضوء اللمبة الصغيرة التي تتدلى فوق الموقد الغازي من خيط معلق في الجدار، ثم يتحرك ببطء مرتفعاً بجذعه ويستلقي على جنبه مسنداً رأسه الى يده. يتناول تمرة، وقبل أن يشرع في أكلها يدفع العلبة نحوي دون ان يقول شيئاً. أفعل دائماً مثله لأنّي أحب الدقلة وان كنت أفضل تناولها في الصباح.

حين تبلغ عملية الهضم ذروتها أبسط ذراعي. وأتوقف عن الحركة. في ذلك الوقت الذي انتقل فيه رغم كل ما أبديه من مقاومة الى حالة من الخمول والتأرجح بين النوم واليقظة، يشرع عادل في الكلام. في مثل ذلك الوقت الذي أكون فيه خائر القوى يحلو له ان يحدّثني وان كان يفعل ذلك في البداية بهدوء وبصوت غير مرتفع اذ لا شك أنه كان يدرك أنّني في حالة لا تسمح لي بأن أتحمل حماسه وصوته المرتفع.

في غالب الأحيان يروي لي ما حدث له طوال الأسبوع في الفندق الذي كان يحرسه. حكايات طريفة او غريبة تثير شيئاً من اهتمامي رغم حالة الخدر والخمود التي أكون فيها. حكايات أغلب أبطالها غرباء. سياح متواضعو الامكانيات. مومسات وسحاقيات ولوطيون. قوّادون وقوادات. سراق ومجرمون صغار وباعة مخدرات. مهاجرون ضائعون. أرامل ومطلقون يائسون من الحياة. أطفال لقطاء ونساء هاربات من أزواجهن. طلاب فاشلون ضيعوا الدراسة والعمر معاً. شبان لا يريدون العودة الى بلدانهم خوفاً من ان تنفضح أمورهم وينكشف فشلهم في تحقيق أحلامهم معارضون صغار انهارت أحلامهم فأصيبوا بداء الاكتئاب. مزوّرو بطاقات هوية واقامة. مدمنو خمر ومخدرات. تجار اسلحة نارية خفيفة مهربة. محتالون ودجّالون ومشعوذون: سحرة وعرّافون ومقامرون. ملاكمون صغار متقاعدون..

شيئاً فشيئاً ينتظم الكلام ويجد ايقاعه. يستوي عادل في جلسته متكئاً بركبتيه على المخدات، ويميل بجذعه في اتجاهي. يرتفع صوته قليلاً، وتتسارع الكلمات على لسانه، وتتسع عيناه. يحدث كل ذلك في وقت أكون فيه قد بدأت أخرج ببطء من حالة الخدر والخمول. أحياناً يتوقف عادل عن الكلام ليضحك أو يقهقه وهو يمد عنقه نحوي كما لو أنّه يستحثني على ان أفعل مثله. أضحك بدوري، فيتراجع بعنقه، ويضحك من جديد قبل ان يعود الى حكاياته.

تتعاقب الحكايات. تتوالد من بعضها البعض كما لو ان عادل قد تدرّب طويلاً على روايتها. وفي ساعة متأخرة من الليل يخفت الصوت، وتتباطأ الكلمات، ويتقطع الكلام، ثم يتوقف.

ينزلق عادل بكل جسده على المخدات، ويعود الى وضعه السابق وهو يستغفر الله بصوت واطىء يكاد لا يُسمع. بعد لحظات يحدق خلالها في سقف الغرفة يغمض عينيه. عندئذ أدرك أنه قد آن الأوان لأغادر المكان.

- 8 -

حين تسكر سعاد ترفض ان تعود إلى بيتها، وترافقني الى شقتي. ما ان أغلق الباب حتى تبدأ في نزع أغلب ما عليها من ملابس وتستلقي على الفراش مسندة رأسها إلى يديها المشبوكتين. أعد لها القهوة، وبعد ان أُقدّمها لها اجلس بعيداً عنها بالقرب من النافذة، ولا أكلّمها اطلاقاً فقد كنت أعرف انها تحتاج في مثل هذه الحالات الى قليل من الصمت. بعد القهوة الثانية تستوي في جلستها من دون ان تغادر الفراش، وتنخرط بصوت تكاد نبرته لا تتغير في حديث طويل عن أعوام المراهقة في مجاز الباب. لا أقاطعها أبداً، وانما أصغي إليها بانتباه، فقد كنت واثقاً من ان الحديث عن تلك الأعوام يريحها بل ويوفر لها متعة ما. أستاذ الرياضيات قصير القامة، ذو البطن المكور الذي يتراهن مع رواد المقاهي على ان ما يتقاضاه من مال كل شهر سيرغمها ذات يوم على ان تقبله زوجاً، وانه هو الذي سيفض بكارتها ويمرغ رأسه في تلك المؤخرة المدهشة التي لا مثيل لها في كل مجاز الباب. الأب الذي كان يشتغل نادلاً في أفخم مطعم في البلدة. كان يدلّلها ويتباهى بذكائها بل وبجمالها. شعرها ناعم مثل شعر الفرانساويات، يقول لأصدقائه الندل حين تلتحق به في المطعم لأمر ما. يقلم أظافرها، يقص شعرها، يبدي رأيه في ما ترتديه. وفي بعض المناسبات يختار لها الملابس عندما بدأت أنوثتها

تفيض تغيرتماما. أخذ يتحاشاها في الشارع والمطعم وحتى في البيت. شيئاً فشيئاً ابتعد عنها، وأصبح عاجزاً عن النظر اليها. لم يعد يكلّمها أيضاً، وكل اتصال صار يتم بواسطة الأم التي كان سلوك الأب يربكها الى درجة انها لم تعد تدري كيف تتصرف حين يكون الاثنان في البيت. زوّجيها يقول لها كل يوم. ابحثي عن رجل لهذه القنبلة قبل ان تنفجر فتقتلني وتقتلك وتدمّر كل شيء. أستاذ الفرنسية الرقيق جداً الذي كانوا يروّجون عنه اخباراً غريبة لا أساس لها من الصحة. كان يدير نادي السينما الذي أسّسه في البلدة. كل الأفلام التي أحبتها وتأثرت بها في مراهقتها شاهدتها هناك. هناك ايضاً بدأت معرفتها الحقيقية بالسينما، واكتشفت ميلها الخاص اليها الذي لم يخف إلى حد الآن حتى بعد اقبالها الشديد على الأفلام المصرية في الأعوام الأخيرة. ساكو وفانزيتي. زاد. حالة حصار. أغير غضب الاله. الأزمنة الحديثة. الموت في البندقية. العصفور. شمس الضباع. المومياء. القيامة الآن. حين تمر اللقالق.. الحلاّقة التي كانت تحبها كما لو انها ابنتها كما تقول. تصفّف شعرها مجاناً. تهديها أمشاطاً جميلة وعطوراً ومراهم تجميل مستوردة من ألمانيا حيث يقيم زوج أختها، دون ان تنسى ان تتلمّسها بين وقت وآخر في مواضع حسّاسة أو تداعبها مداعبات غريبة ومثيرة في آن واحد أدركت فيما بعد لما كبرت وصارت تفهم هذه الأمور أنها غير بريئة. أخوتها الثلاثة الذين تكبرهم كلهم وخصوصاً أصغرهم الذي يكتب اليها منذ ان هاجرت الى اليوم كل شهر رسالة طويلة يتحدث فيها بدقة عن كل ما يحدث في مجاز الباب والقرى المجاورة. الممرض الذي أحبته كما لم تحب أحداً. قبل ان تصبح بدورها ممرضة في مستشفى البلدة بعد انقطاع نهائي عن

الدراسة، وعاشت معه وهي لم تتجاوز سن الرابعة عشرة مغامرة جنونية خطرة كادت تفقدها بكارتها التي كان ذلك الرجل القصير ذو البطن المنتفخ مهووساً بها. أبناء الكلب تقول دون أن تغيّر نبرتها يتباهون بالتحرر ويؤسّسون نوادي واتحادات وجمعيات للمرأة في كل مكان، لكن حين ينزلقون بذكورتهم ملامسين القاع دون ان يعترضهم ذلك الحاجز يصابون بانهيار عصبي، وأحياناً يقترفون أفظع الجرائم. لماذا يتشبثون بذلك الغشاء الى هذا الحد؟ لماذا تذهب عقولهم وتظلم الدنيا في عيونهم عندما يكتشفون ان الطريق سالكة مفتوحة؟ لماذا هم ضد الفتح والانفتاح؟ ألم يبتدىء تاريخنا المجيد بفتح مبين؟ ثم أليس من الأفضل لهذا الغار المظلم والرطب، غار العسل كما تسميه زميلة في جمعية التونسيات المهاجرات ان يفتح بسرعة للهواء والشمس؟ لو كنت ناضجة آنذاك لما تردّدت لحظة واحدة في تحطيم هذا الحاجز، ولسمحت لذلك الممرض الذي أحببته ان يكسّرني كما يقولون، او فعلت ذلك بنفسي ومزّقت هذا الغشاء بشفرة حلاقة او مسمار دقيق او ناتف شعر او بكل بساطة بأظفاري نكاية بهؤلاء الذكور الديكة المهووسين بالبكارة. على أي حال لقد انتقمت منهم. لم أسعَ إلى ذلك، وانما تمَّ بشكل تلقائي وفي ظروف لم أكن أتوقعها اطلاقاً. ذات ليلة كسّرني على ضوء قمر صيفي وفي عربة من الدرجة الثانية لقطار سريع يعبر مقاطعة كاتالونيا متوجهاً الى برشلونة، وتحديداً في طرف ممرها الطويل شاب اندلسي اسمر كافر وغير مطهر.

الغريب في الأمر هو انني لم انتبه الى ذلك إلاَّ بعد دقائق طويلة. لا شك أنني كنت سكرانة اذ كان من عادتي ان أشرب

كثيراً من البيرة في تلك الأعوام التي سافرت فيها بالقطار الى أشهر بلدان أوروبا. حين خلص مني ذلك الشاب الذي لم أعد أذكر حتى اسمه جسده استدرت واتكأت على جنبي قبالة النافذة لرؤية القمر الذي يملأ المكان بضوئه. عندئذ وقعت عيناي على خيط رقيق من الدم يسيل في اتجاه ركبتي. لم أتألم، ولم أفرح. لم أتذكر احداً ولم أفكّر في أي شيء. الحقيقة انَّني لم احس بأي شيء. كنت مثل جذع شجرة مقطوعة ملقى في مكان ما. كل ما فعلته هو أنه مسحت ببطء وهدوء شديد ذلك الخيط الرقيق من الدم بكلينكس، ثم أسندت رأسي الفارغ كصحراء، على كيسي، وأخذت أتطلع من نافذة القطار المتحركة الى قمر كاتالونيا.

لا تتحرك سعاد في مكانها، ولا تغيِّر نبرة صوتها. تعود إلى أعوام الدراسة الأربعة في ثانوية المجاز التي كانت من أكبر وأهم ثانويات الشمال. تتحدث عن أمها التي كانت تشتغل هناك. تغسل ملابس التلاميذ المقيمين وتكويها. احياناً تساعد الطبَّاخين وتوزّع أطباق الطعام على الطاولات في المطعم. تقدّرها وتعزّها لأنها علّمتها الكثير مما يجب ان تعرفه كل انثى في سن المراهقة. بدون حياء أو حشمة شرحت لها كل شيء تقريباً من هاك الشيء اللي من عند ربي مثلما كانت تقول. تحبها طبعاً لكن أقل مما كانت تحب ذلك الأب الذي كف منذ ان بدأ جسدها يفور عن أن يكون أباً، وقرّر ان ينساها ظلماً. نعم ظلماً اذ ما ذنبها ان نما جسدها بهذا الشكل؟ هي ايضاً فوجئت بهذا التغيُّر الذي لم تستعد له نفسياً، بل كانت ولا تزال ضحيته الوحيدة. صحيح ان احساساً عميقاً بالزهو والسعادة كان يغمرها في الأيام الأولى خصوصاً حين تكون وحيدة في البيت فتتعرى أمام مرآة

الخزانة الكبيرة في غرفة أبيها وأمها او تلامس الشعر الفاحم مثل شعر رأسها الذي بدأ ينمو هناك في أعلى فخذيها او تتأمل استدارة الردفين الطريين الناعمين وهذا الفم الذي يلفت الانتباه على ما يبدو بشفتيه الممتلئتين. صحيح ايضاً انها تشعر انها أصبحت امرأة حقيقية يشتهيها الرجال عندما تمر أمام أي مقهى في قلب البلدة فتستدير الرؤوس وتمتد الأعناق في اتجاهها. نعم، كل ذلك يفرحها. ولكن كم من مرة ظُلمت أو شُتمت أو أُعتدي عليها بسبب أو بدون سبب. في البداية كانت لا تفهم ما يحدث لها فتتألم كثيراً، لكنها سرعان ما أدركت كل شيء، وأصبحت تتقبل الأمر وتتعامل معه بكثير من الصبر والتماسك. كم من مرة نُعتت بأنَّها قحبة. حتى هنا لم تسلم من ذلك. نعم، لا تزال الى اليوم تدفع ثمن هذه الأنوثة الفائضة في الوداديات والقنصليات التي تتردّد عليها بحكم نشاطها في جمعية التونسيات المهاجرات.

أمي امرأة رقيقة جداً وشديدة الحساسية تقول سعاد. لهذا السبب أميل إلى أنَّ أصلها اندلسي. لما أعلمتها بأنَّني قرّرت أن أتوقف عن الدراسة وأدخل مدرسة الممرضات لأستقل بذاتي وحياتي كاد يُغمى عليها اذ كانت تحلم ككل الأمهات الفقيرات غير المتعلمات بأن أُصبح استاذة او طبيبة. وعندما قلت لها بعد أعوام كثيرة أنَّني سأهج هرباً من شبح هذا الأب الذي يزداد ابتعاداً وانغلاقاً وانطواء على نفسه، وخوفاً من أن يفعل شيئاً غريباً خطراً كأن يرتكب جريمة، او يُلقي بنفسه تحت عجلات القطار، وهرباً من ذلك الرجل القصير الذي يُراهن على أنَّه سيمرغ ذات يوم رأسه في مؤخرتي، ومن مشاكسات ونظرات رواد المقاهي ومن التهم والاشاعات التي تلاحقني في كل مكان، ومن ناموس

مجاز الباب وبرغشه وبعوضه ومن الأتربة وغبار العواصف وزبل الأبقار وروث البغال والحمير على ما يسمّونه أرصفة، حين قلت لها كل ذلك أُغمي عليها فعلاً.

يخطر ببالي ان أقول لسعاد ان أمّها تشبه أمي التي ذبحت لي فراريجها بدلاً من ان تبيعها وتشتري بثمنها ملابس جديدة لها ولأختي وحتى لزوجها. نعم حتى لزوجها الذي يعشق القبور اذ أنه كان يريد ان يحملني الى جبانة بوعرعارة لنتفرج عليها. إلاّ أنّني لا أقول شيئا لكي لا أقاطعها فأفسد عليها تلك المتعة. لا أتحرك أيضاً. أبقى جالساً بعيداً عنها بالقرب من النافذة، وأستمر في الاصغاء اليها بانتباه.

ثمة سبب آخر دفعني إلى الانقطاع عن الدراسة والالتحاق بمدرسة الممرضات تقول سعاد. كنت في حاجة الى كسب ما يكفي من المال لأستقل قليلاً بذاتي وأشتري ما كنت أود شراءه من ملابس وأسافر بين وقت وآخر اذا سمح لي بذلك طبعاً اذ كنت شديدة الحرص على ألاّ أفعل كل ما يمكن أن يثير غضب ذلك الأب رغم سلوكه القاسي الغريب وابتعاده عنّي. كل ذلك صحيح. لكني كنت أيضاً أحب هذه المهنة النبيلة. كنت أحلم بأن أرتدي تلك البلوزة البيضاء وأوزّع الأدوية على المرضى. كنت أحب أن أُساعدهم على النهوض من السرير او الذهاب إلى الحمام او تناول الطعام. كنت أحب أن أستمع الى أحاديثهم وقصصهم او تذمراتهم بتلك الأصوات الخافتة المرتبكة. حتى روائح الأدوية والكحول ومواد التعقيم والضمادات والكمادات والأغطية والوسائد التي يجدها أغلب الناس كريهة منفّرة ألتذ بشمها لا لأنها رائحة زكية أحبها لذاتها، وإنّما لأنها تنقلني الى

عالم آخر، عالم هش أبيض شبه اخرس. عالم حركاته القليلة بطيئة وكائناته تقيم بين الوجع والصبر. لا النظرات نظرات. ولا الوجوه بما اكتسبته من ألوان وجوه.. الشيء الوحيد الذي لم أكن أحبه في هذا العالم هو أن أزرّق للمرضى. كنت أتحاشى ذلك قدر الامكان لأنّي أتألم حقاً حين أطلب من المريض خصوصاً اذا كان طفلاً ان ينبطح ويتعرى ثم عندما ارفع يدي قليلاً وأنزلها بسرعة غارزة الابرة في اللحم الطري. بعد فترة قصيرة أدركت للأسف ان المهنة صعبة وتتطلب خصالاً وصفات لا أمتلكها، وهذا ما أكّده ليس مساعد مدير المستشفى حين قلت له أنّني اتخذت قراراً بالتخلّي عن عملي.

تتوقّف سعاد عن الكلام. أمد عنقي دون أن أغادر مكاني لأراقب حركاتها. عندما تتكىء على جنبها وترفع يدها بتراخ الى ما تساقط من شعرها لتلامسه أصير واثقاً من انها لن تقول شيئاً. أفتح النافذة قليلاً لتهوية الغرفة، ثم أنهض وأجلس بجوارها على السرير. تلتفت إليّ وتبتسم ابتسامة ماكرة مغرية ينفتح خلالها فمها على ما يشبه الاستدارة وترتعش شفتها السفلى. أبتسم لها بدوري فتنظر إليّ بعد أن تزم شفتيها الى الداخل، وتحركهما كأنّها تمتص شيئاً ما. أغمض عيني قليلاً، وعندما أفتحهما تلقي بما تبقّى عليها من ملابس أمامي، ثم تجر نحوي جسدها. منذ تلك اللحظة يخيم صمت ثقيل وموجع تشتد وطأته كلما تقدم الزمن وتتخلله تنفسات قصيرة لاهثة وشهقات متقطعة او مكتومة. صمت لا بد منه لكي يحدث ما يحدث اذ يفقد الكلام، أي كلام، كل معنى. ببطء شديد تشرع سعاد في تحريك جسدها فيتغيّر وجهها شيئاً فشيئاً. يتبدّل اللون، أمّا الملامح فهي تختفي تاركة المكان لملامح جديدة.

في البداية تستلقي على ظهرها او على جنبها رافعة خصرها قليلاً، او فاتحة ساقيها، او مادة يديها او دافعة بنصفها السفلي الى الوراء. يتخذ جسدها وضعيات تبرز بشكل فضائحي مثير أجزاء تعرف أنَّني أفضلها على غيرها. وبعد وقت قصير تغمض عينيها طيعة مستسلمة فتبدأ اللعبة. أستنفر الأصابع واللسان والأنف، أغلب ادوات الحواس وأوقظ ما يرقد فيّ من غريزة وبدائية، ثم أقتحم مناطق قصية محرّمة لاستكشافها. أكون في أغلب الأحيان منفعلاً متوتراً ترتعش يداي وتتسارع دقات القلب. ترتبك أصابعي وتتعثر وهي تقترب من تلك الأماكن السرية المنغلقة، فأنا أفعل ذلك مرغماً الى حد ما وليس بدافع رغبة قوية وان كنت أعترف بأنَّ ذلك يستهويني أحياناً.

تدفعني سعاد الى هذه اللعبة بذكاء كبير. توظّف جمالها وحساسيتها. تستخدم طاقتها الهائلة على الإغراء. توجهني، تقودني حيث تشاء فهي التي تمسك بكل خيوط اللعبة وتتحكم فيها من البداية الى النهاية. والغريب في الأمر هو أنها لا تفعل شيئاً وكل ما تقوم به لا يعدو أن يكون حركات قصيرة شديدة البطء. ولكي نذهب بعيداً في اللعبة فنبلغ أقاصي اللذة ينبغي ان أوهم سعاد وأوهم نفسي بأنَّ كل ما أفعله تمليه رغبة جامحة ليس باستطاعتي ان أسيطر عليها إلاَّ حين أتمكن من اشباعها في عتمة هذا الجسد المكوم أمامي.

ثمة شيء آخر كان يبدو لي خصوصاً في الأيام الأولى غريباً وهو ان سعاد لا تتحدث عن ذلك ابداً. حالما تنتهي اللعبة تضم ركبتيها وتقربهما من بطنها، وتغطّي جسدها بملابسها، ثم تغرق في صمت محير يرافقه أحياناً شيء كالاكتئاب. تظل على تلك

الحال الى أن يأخذها النوم. وفي الصباح تنهض نشطة مرحة كالعادة، وتشرع في إعداد الفطور كأن شيئاً لم يحدث، أو كأنَّ ما حصل البارحة كان حلماً جميلاً جمعتنا فيه قوى خفية غريبة ودفعتنا كالرياح الى أدغال محظورة.

لا أفهم صمت سعاد. لا أدري لماذا تريد ان تنسى كل ذلك كما لو ان نسيان مثل هذه الأشياء ممكن، كما لو أنَّنا نستطيع ان نحوّل رغباتنا الى حقائق. يحيّرني صمتها، وأحياناً يوجعني فأنا أحس احساساً غامضاً بأنَّ الحديث بشكل ما عن تلك اللعبة يخفف قليلاً من وطأة تلك الأحاسيس المبهمة المتناقضة التي تغزونا حالما نفلت من أسر اللذة ونستعيد شيئاً من تماسكنا وتوازننا.

ذات صباح، بينما كانت تنتظر معي القطار في محطة المترو قبل أن تتوجه إلى الجمعية طرحت عليها ذلك السؤال الذي كان يستحوذ عليّ بين حين وآخر. فعلت ذلك بدون مقدمات أو إعداد نفسي. أذكر انها كانت تلوك علكة. توقفت عن ذلك، وتطلعت طويلاً الى عيني. وقبل ان تنصرف مدّت يدها لتداعب أنفي، ثم قبّلتني على شفتي كالعادة. عندما ابتعدت قليلاً أخذت أنظر اليها وأنا أحاول أن أتخيل وجه ذلك الرجل القصير الذي كان يريد أن يمرغ رأسه في مؤخرتها.

- 9 -

لن أتركك تفلت مني هذه المرة..

تقول أمي وهي تقدّم لي فراريج مستكينة مربوطة القوائم.. لكنّي أفلت منها تلك المرة أيضاً.. في الحلم كما في اليقظة

أهرب منها، وأمضي الى حيث أريد.. أتناول الفراريج من يدها لكي تطمئن إلي وتكف عن مراقبتي. وحالما تجلس بجواري على المقعد الخشبي أنهض وأطلق قدمي للريح غير عابىء بنظرات المارة وقوقأة الفراريج وشتائم بعض العجائز اللاتي لم أتمكن من تجنب الاصطدام بهن.. بعد مسافة طويلة لم أعد أقوى على الركض. أستند إلى جذع شجرة، وأنظر خلفي فلا أراها. بعد وقت قصير أنتبه الى الفراريج في يدي. كانت قد كفت عن القوقأة وعادت الى استكانتها. ماذا سأفعل بهذه الفراريج أتساءل بحيرة. وفيما أنظر حولي أرى صندوق قمامة أمام باب احدى العمارات. أتوجه إليه محاولاً ألاَّ الفت انتباه المارة، ثم ألقي داخله بالفراريج، وأشرع في السير على رصيف البولفار العريض.

أنتفض مندفعاً بجسدي فيصطدم رأسي بالتلفون. أستدير قليلاً متطلعاً حولي، تقع عيناي اللتان كنت أجد صعوبة في فتحهما على الخزانة، فأدرك في تلك اللحظة أنَّني كنت أحلم. أشعر بالفرح لأن ما فعلته لأمي وخصوصاً القاء فراريجها في صندوق القمامة كان يعذّبني رغم أنَّني كنت مقتنعاً بأنه كان لا بد أن أفعل ذلك اذ أنَّني لم أكن مستعداً أن أعبر كل البولفار حاملاً في يدي فراريج حية خصوصاً ان كل ذلك فاجأني حقاً. نعم، حتى في الحلم لم أكن أتوقع اطلاقاً ان تعترضني أمِّي ذات صباح في أحد البولفارات. أغمضي عينيَّ من جديد قبل ان أستعيد وضعي السابق، ثم أشرع في تذكر ما بقي من الحلم: حين أتأكّد من أنَّ أمي لن تعثر عليّ أستريح قليلاً على مقعد شبيه بذلك الذي كنت جالساً عليه عندما انتصبت أمامي فجأة كأنَّها طلعت من بطن الأرض. ثم أعود الى السير بادئاً بذلك تجوالاً كنت حريصاً على

القيام به في نهاية كل اسبوع. كل ما في البولفار يجتذبني كما اجتذبني في المرة الأولى. رغم هذا الارتخاء الذي يتسلّل الى الجسد كهواء دافىء مخدر، رغم التعب الذي يهد الركبتين والمفاصل، رغم اقتناعي بأن عبوره لن يضيف لي شيئاً، لا أعدل عن قراري. ولا بدَّ أن أعترف بأن كل ما في البولفار يثير انتباهي ويغزي ذاكرتي ومخيلتي مولداً في نفسي احساساً عذباً بمزيج من الدهشة والابتهاج والهدوء. الانعطافة الخفيفة في بدايته. الاتساع الذي يتيح للأرجل ان تأخذ مداها وللخطوات ان تنتظم من دون ان تصطدم بغيرها او تُرغم على تغيير اتجاهاتها. الطول الذي يناسب ايقاعي وطاقتي على المشي خصوصاً في الصباح. بلاطات الرصيف التي تلتمع بالضوء حين تتحرّر السماء من غيومها. واجهات الدكاكين. ألوان الأقمشة الزاهية. وجوه المارة بملامحها وأشكالها المختلفة. روائح البقول والتوابل. أشكال اليافطات. الخطوط واللغات. قوائم الطعام..

أتوقف عن السير بعد خطوات قليلة، اذ ان رغبة شديدة في التوقّف تتملكني بغتة. كان باستطاعتي ان أراوغ قليلاً فأحتال عليها باستعادة ذكرى بعيدة او واقعة قديمة، لكني لا أريد أن أفعل ذلك خصوصاً في الصباح. أتوقف اذاً بدون أن ينتابني أي احساس بالندم او ما شابهه من هذه الأحاسيس المعذبة التي أحاول قدر الامكان تجنبها، أو أي خوف من ظهور مفاجىء لأمي. أشرع في تفتيش جيوب سروالي كأنّني أضعت شيئاً ما. المفاتيح التي يحلو لي احياناً ان أستمع الى الصوت الذي تحدثه حين ترتطم ببعضها هناك. أتلمسها اذ ينبغي ان أفعل شيئاً ما وأنا واقف هكذا كعمود بارد وسط الرصيف. لا أخرجها فأنا أعرفها

واحداً واحداً من خلال أحجامها رغم انها متقاربة. مفتاح علبة البريد التي صرت أغلقها بإحكام منذ اكتشفت صدفة ان ابن المهاجر التركي الذي يقيم في غرفة واحدة مع أبيه وأمه وأختيه يسرق الرسائل من حين إلى آخر ليلعب بها او يقذف بها بعد ان يكوّرها قطة العجوز الاسبانية المربوطة دائماً بخيط طويل الى نافذة غرفتها. مفتاح الشقة. مفتاح القبو الذي أضع فيه دراجتي، فأنا لا أستطيع كلما أردت استعمالها ان أهبط وأتسلق بها الدرج الى الطابق الرابع حيث شقتي، فضلاً عن ان ذلك سيثير دون شك استغراب جيراني من العجائز اللاتي كنت متأكداً من أنهن يراقبنني ويتلصصن عليّ مثلما أفعل أنا أحياناً من خلال هذه الثقوب الجهنمية في الأبواب. أواصل السير راضياً مطمئناً متماسكاً تماماً. لا شيء، بعد ان نجحت في التخلّص من أمي وفراريجها بإمكانه ان يفسد عليّ ذلك التجوال في فضاء آسر وفتّان. أقول في نفسي بقليل من الزهو انا الآن مهيأ جسدياً ونفسياً للمغامرة.

يتفاقم شعوري بالرضا ويتحول شيئاً فشيئاً الى ما يشبه الفرح حين أكتشف بعد انحناءة خفيفة الى الأمام أنّني أنتعل الحذاء الذي يريح قدمي اكثر من كل الأحذية التي أمتلكها. وقبل أن أشرع في ترديد لحن أغنية صليحة المشهورة يا خيل سالم باش روحتولي أقول في نفسي: عجيب أمرها هذه الصدفة!! مرة أخرى ها هي تنظم الأشياء جيّداً.

عند الانتهاء من عبور الانعطافة التي تذكّرني دائماً بانعطافة طريق رملي كنت أسلكه باستمرار قبل ان أغادر قريتي وأستقر في هذه المدينة أتوقف عن السير وأستدير ببطء وحذر كي لا أثير

انتباه رجال ذوي وجوه مستديرة وشوارب كثة يعبرون الشارع وهم يتطلعون حولهم بعيون قلقة خوفاً من السيارات. أحدّق للحظات في الانعطافة، وأكتشف بغتة أنها ليست خفيفة الى الحد الذي كنت أتصوره. بل أدرك وأنا غارق في تأمُّل ذلك المشهد ان ما أسميه انعطافة ليس في الحقيقة سوى زاوية. أنتبه الى أنّني أنساق بدون وعي الى نوع من التفكير لا يمكن أن يؤدّي إلاّ الى تلاشي ذلك الاحساس بالرضى والتماسك. أستدير بسرعة وأستأنف السير.

ينحدر البولفار انحداراً خفيفاً. كان من الممكن ألاّ ألاحظ ذلك لولا احساسي بأنّ حركة قدمي صارت أسرع وأنّ المجهود الذي كنت أبذله لدفع جسدي الى الأمام أخذ يتناقص. من الجانبين تتكاثر المتاجر والمقاهي والمطاعم ووكالات الأسفار خلف صفّين من أشجار دلب تساقطت أوراقها فبدت شبيهة بمنحوتات كالدير. ما الفائدة من أن يعرف رجل مثلي منحوتات فنان امريكي سمه كالدير؟ أتساءل وقد ارتسم على شفتي ما يشبه الابتسامة. تشرع مخيلتي في استعادة بعض ما شاهدته مؤخراً من تلك المنحوتات في ساحة واسعة تحاصرها عمارات شاهقة جدرانها من زجاج والومينيوم، ثم أتذكّر ان كالدير أقام في هذه المدينة مثلما أفعل أنا الآن. يتلاشى ما ارتسم على شفتي منذ حين ويشرد ذهني للحظات. فجأة أنتفض كما لو أنّني أفيق من حلم، وأعاتب نفسي على هذا الشرود.

أمدُّ عنقي وأركز نظري على ما حولي. ينتهي انحدار البولفار ويزداد الرصيف اتساعاً. وفي بعض المواضع تنتشر حفر صغيرة لا شك انها أمكنة بلاطات اقتلعت. في احداها براز كلب

يميل الى الصفرة ظننته جزرة متعفنة. قرّرت ان أدعسها مثلما يحلو لي أن أفعل أحياناً، لكني لم أقم بذلك لحسن الحظ، فقد اكتشفت حقيقة الأمر تماماً في اللحظة التي هممت فيها برفع قدمي استعداداً لتوجيهها الى الحفرة. أتراجع قليلاً بجذعي. ألقي نظرة أخيرة على الحفرة، وأتمتم كي لا يسمعني أحد: ما أكثر كلاب هذه المدينة..

أرفع رأسي وأبدأ في قراءة يافطات الرصيف الأيمن.. مطعم دار جربة. حلويات بودارة. جزارة هنريكو للخنازير. متجر مينيلمنتون للأغذية. مقهي بياريتز. أضواء بلفيل. شركة الذبح طبقاً للشريعة الاسلامية. سوبر بازار. الخطوط الجوية التونسية. نادي الفيديو. المجزرة الاسلامية. ادوات منزلية كهربائية. شارلو مطعم الأصدقاء. أسفار الجزائر. حلاّق عصري. اتحاد المذابح الاسلامية. حلويات شرقية. ثمار وبقول اكزوتية. مقهى مونتريال. مسجد ابو بكر. مجزرة دجود جورا. شركة بلفيل للموكيت والدهان وورق الجدران. مطعم المستقبل. مطعم قرطاج. أسفار ناتي. مغسل أوبيركانف. بيتزريا دون نينو. فندق قوس قزح. بارفونتنوا. تصليح راديوهات وتلفزيونات. المخبرة الايطالية. مطعم فرنسا القديمة. مقهى القارب. حلويات السعادة. مطعم الكسكسي الملكي. فيديو القرن العشرين. مطعم غمراسن..

تتناقص سرعة سيري شيئاً فشيئاً. أدرك وأنا أدفع قدمي بتمهل وكسل لذيذ أنّني لم أعد أشعر بأي تعب كما لو ان انخراطي في مشاهدة ما حولي قد أزال كل ما كنت أحس به في الركبتين والمفاصل قبل ان أبدأ التجول. حين أبلغ ما يخيل الي

انه منتصف البولفار أتوقف والتفت في كل الاتجاهات كما لو أنّني ارى ذلك للمرة الأولى. المكان يشبه ساحة دائرية صغيرة يتوسطها مدخل محطة مترو. بين وقت وآخر يخرج من النفق رجال ونساء، ويتفرقون بسرعة في الشوارع المجاورة. أتطلع الى الدكاكين التي تحيط بالمحطة، ثم أرفع بصري الى طوابق العمارات المتشابهة.

الجدران رمادية ومتشقّقة في بعض المواضع. والنوافذ مختلفة الألوان ذات حجم واحد. فوق بعض الأبواب الخشبية الفخمة زخارف وتواريخ وأسماء مهندسين معماريين. أقرأ بعضها بقليل من الاهتمام متسائلاً عمَّا اذا كان أصحابها لا يزالون على قيد الحياة. في إحدى النوافذ رجل ذو لحية سوداء يدخن غليوناً. انظر الى وجهه المستدير المحاصر بالشعر، ثم الى عينيه اللتين تبدوان لي من ذلك المكان شبيهتين بعيني جمل. كان مستغرقاً في تأمل شيء ما. ذراعاه متدليتان، وجسده الجامد منتصب وسط النافذة. بين وقت وآخر ينبعث من غليونه دخان رقيق. بعد لحظات انحنى قليلاً. فوجئت بحركته فاستدرت بكل جسدي الى مدخل المحطة. اختلست النظر اليه دون أن أُحرِّك رأسي فأدركت أنه يحدق فيّ. عندئذ قرّرت أن أُغادر المكان فوراً. عدت الى السير موسعاً خطاي قدر الامكان، وبعد مسافة قصيرة رجعت الى ايقاعي البطيء.

أتذكر وانا أقترب من دكان كتبت على يافطته «حلويات الجنوب» سعاد وهي تلتهم اللنغوستينات والقريديسات والسلطعون والحلزون الأسود والمحار. الباب الواطىء فيروزي اللون، والواجهة جذّابة مغرية. بعد تردُّد أدفع الباب وأدخل. الفضاء

الغارق في ضوء النيون الباهر يعبق برائحة زيت محترق وبطاطا مقلية. وصاحب الدكان مستغرق في مخابرة هاتفية. يقوس حاجبيه ويرسم بيده اشارة أفهم منها انه ينبغي أن انتظر. كانت تلك هي المرة الأولى التي أدخل فيها الدكان. أقترب من الرفوف للتفرج على الحلويات. كانت مكدّسة في أكوام هرمية على صحون عريضة من الفخار فوق طبقة رقيقة من عسل السكر برتقالية اللون تتوزعها بقع سوداء لا شك أنها قطع عجين احترقت أثناء الطهو. كانت تتلامع بألوانها الزاهية تحت ضوء لمبات ملونة تتدلى من السقف فوق الرفوف. زلابية. مخارق. مقروض. بقلاوة. قطايف. غريبة. قرن غزال. حلقوم عادي. حلقوم معطّر. قلب اللوز. كعك بالجلجلان. لوز الهند. شامية عادية. شامية باللوز. فطاير بالسكر. فطاير بالعسل. تمر محشي باللوز..

حالما أخرج من الدكان ألاحظ أنَّ الرصيف يضيق ويصبح أكثر ارتفاعاً. على اليمين تقوم بنايات تفصل بينها حدائق صغيرة يلعب داخلها أطفال زنوج وآخرون ذوو ملامح آسيوية وتركية وعربية. كان واضحاً من آجرها الكستنائي الكامد أنَّها قديمة وأنَّ واجهاتها لم تملّط منذ وقت طويل. وخلافاً للمباني المحيطة بها فهي ليست عالية وانما مستطيلة. كانت أغلب أبوابها التي يمكن مشاهدتها من الشارع مشرعة على مصراعيها.

أمام احداها زنجية في الأربعين تحمل كيساً منتفخاً. أقول في نفسي وأنا أدنو من السياج الذي يفصل بين الرصيف والحدائق الأمامية أكيد انها مساكن شعبية.. تستدير امرأة فجأة وتخطو بضع خطوات نحو المدخل، ثم تعود الى مكانها. في تلك اللحظة أنظر بقليل من الاهتمام الى وجهها فأكتشف انها جميلة. أتوقّف

وأستند إلى السياج، ثم أستدير قليلاً، وأسترق اليها النظر. وجهها مدور وجبينها عريض. عيناها واسعتان صافيتان، وشفتاها ممتلئتان، لكنهما لا تشبهان شفاه الزنوج الغليظة. كان ينبعث من وجهها شيء جذّاب أنثوي فتان. كلما نظرت اليها بدت أجمل حتى خُيِّلَ لي أنَّني لم أُشاهد ابداً زنجية جميلة الى هذا الحد.

أميل برأسي الى الوراء، وأغمض عيني محاولاً السيطرة على أحاسيسي وعلى هذا الارتباك الذي أخذ يعتريني. أتذكّر أنه ينبغي ان أُتابع سيري، لكني أبقى مسمراً في مكاني كأنَّ شيئاً يشدّني ويشل فيَّ كل حركة. أي فخ وقعت فيه؟ ماذا تفعل هذه المرأة في هذا المكان في مثل هذه الساعة؟ أتساءل وأنا أدعك وجهي. يتفاقم ارتباكي، وينضاف الى أحاسيسي شعور بالذنب. أدرك بغتة أنّي لم أعد قادراً على النظر اليها. لا أستطيع ان أمضي، ولا أستطيع أن أتطلع اليها. أفتح عيني وأُحدّق في السماء، وغيومها، ثم في البنايات وحدائقها باحثاً عمَّا يساعدني على تجاوز هذه الحالة التي لم أكن أتوقعها اطلاقاً. بعد لحظات استدير نحوها، ثم أُلقي عليها نظرة سريعة. كانت هناك، منتصفة امام مدخل البناية. استجمع قواي، وأتطلع اليها من جديد مركِّزاً على الصدر والساقين. عندئذ تهدأ أحاسيسي ويزول ارتباكي، فجسدها دون مستوى وجهها، فهو من هذا النوع الذي لا أحبه. الصدر يبدو مسطحاً، والوركان ضخمان، وربلتا الساقين مكورتان كأنَّهما لعدّاء. أبتعد قليلا عن السياج دون ان أحيد عنها بنظري. وقبل ان أغادر المكان أتساءل عمَّا اذا كانت قد شاهدتني. أعود الى السير، وبعد مسافة حاولت خلالها ألاَّ أفكر في أي شيء انتبه الى أنَّني لم أُضاجع أبداً زنجية. أستغرب الأمر في البداية، وبعد

قليل أجده طبيعياً جداً. ابتسم إلاَّ أنَّني سرعان ما أكف عن ذلك، فقد لاحظت حين التفتُّ صدفة حولي ان اطفالاً واقفين على الرصيف ينظرون اليّ بدهشة.

أتطلع من جديد الى اليافطات. أرى من بعيد كما في المرات الماضية «كسكروت تونسي». الخط جميل، والحروف المكتوبة بدهان أحمر على زجاج الواجهة شديدة الوضوح. فوق العبارة صورة فوتوغرافية لكسكروت، وتحتها السعر تحيط به دائرة زرقاء. أتوقف أمام الخزانة الزجاجية الصغيرة، وأنحني على السندويشات المتلاصقة المصطفة على رف زجاجي مكسو بورق ملون. عددها يتجاوز العشرة سندويشات بالمرغاز والبطاطا المقلية سندويش بالتن والطماطم والبيض، كسكروت تونسي.. وهو يتميز بشيء يسترعي الانتباه فوراً فخبزه له شكل الكرة في حين أنَّ خبز السندويشات الأخرى رغيف مستطيل...

تحت الرف أوان بلاتسيكية ملونة لها حجم واحد تحتوي على مواد غذائية مختلفة: بيض مسلوق. زيتون اسود. زيتون أخضر. مرغيز بعضه نيء وبعضه مقلي. بطاطا مطبوخة مقشرة. بطاطا مقلية. شرائح طماطم. بصل. خيار. فلفل أخضر. فلفل أحمر صغير. أوراق خس مقطّعة. وبالقرب منها صحاف صغيرة من الزجاج تحتوي على زيت عباد الشمس. تن. مسحوق فلفل اكحل. كرويا، كمُّون. كبار. هريسة. ملح. وعلى اليمين الخزانة الزجاجية جدار مطلي بالكلس عُلِّقت عليه مجموعة من القدور والطناجر والطواجن والطسوت والمقالي والمغارف.

أتساءل عمَّا اذا كان يجب أن أشتري سندويشاً عندما ينتصب صاحب الدكان خلف الخزانة مستعداً لخدمتي. أُفكِّر

للحظة في المسألة، ثم أُقرِّر ألاَّ أشتري شيئاً، اذ انني لم أكن أشعر بأي رغبة في الأكل في ذلك الصباح كما أنّي لم أكن مستعداً وأنا في تلك الحالة النفسية أن أحمل سندويشاً وأتنقل به طوال الوقت الذي سأقضيه في ما بقي من البولفار، ثم في الطريق الذي سأسلكه أثناء عودتي الى البيت فضلاً عن أنّني أكره رائحة زيت عباد الشمس الذي سيبلّل حتماً يديّ، ويندلق بين أصابعي حتى لو لُفَّ في ورق صَرّ. إلاَّ أنَّ كل ذلك لم يكن مجدياً، فقد تخليت فوراً عن قراري حين انتصب أمامي صاحب الدكان. لما سألني وهو يحك احدى أذنيه ماذا تريد؟ أجبته فوراً كما لو أنّي لا أعي ما أقول: كسكروت تونسي. برشة هريسة؟. نعم، برشة هريسة. لم أتكلم، لكن الاشارة التي رسمتها برأسي كانت شديدة الوضوح.

أميل على الخزانة الزجاجية فيما يشرع صاحب الدكان وهو لا يتوقف عن حك أذنيه في إعداد الكسكروت. سأستفيد قدر الامكان من المشهد على الأقل أقول في نفسي. الخبزة المكوّرة بين يديه الآن. لا خوف من الأظفار فهي نظيفة رغم أنَّها غير مقلمة. يشق الخبزة افقياً في الوسط بسكين. يزيل أغلب اللب ويلقي به في كيس بلاستيكي. ملعقة زيت. ملعقة هريسة، ثم تبدأ عملية الحشو. طماطم. بطاطا. خليط من البصل والخيار والخس. طبقة سميكة من التن. أربع أو خمس حبات زيتون اسود. وفوق هذا الركام تلك الفليفلة الحمراء شديدة الحرافة.

قبل أن أدفع وأستلم الكسكروت يخطر ببالي أن أطلب من صاحب الدكان ان يلفه في ورق اضافي، لكني لم أفعل ذلك، فقد كنت متيقناً من أنّني لن أحمله طويلاً، وانني سأتخلص منه

بعد خطوات قليلة. أتوقف بعد مسافة قصيرة، وأتفحّص يديّ، ثم أتشمّمهما. الزيت لا يزال داخل السندويش، لكن رائحته بدأت تتسلّل إلى الأصابع. أعود إلى سيري المتمهل مصمماً على نسيان ما في يدي. أرفع قليلاً رأسي، وأواصل عملية التفرُّج.

أمرّ أمام متجر كبير فتقع عيناي فجأة على متسول. أتردّد قليلاً، ثم أدنو منه بخطى واثقة، وأضع السندويش في يده الممدودة. وفي اللحظة التي أهم فيها بالانصراف اكتشف انه ضرير. «كسكروت تونسي.. اشتريته منذ حين أقول له وأنا أنحني عليه لكي يسمعني جيداً. يمد رأسه، ثم يحرّك يده حركة بطيئة توحي بأنّه ليس متحمساً لهديتي. أطمئن.. انه نظيف.. لم أتناول منه أي شيء.. أضيف بصوت مرتفع قبل أن أعود إلى السير. بعد بضعة أمتار أستدير لأنظر الى المتسول. يده لا تزال ممدودة، لكنها فارغة. أُحدِّق في الأرض حول قدميه بحثاً عن السندويش او عن كيس ما، لكنّني لا أُشاهد شيئاً. أشعر بانزعاج لأنّني أهديته شيئاً لم يكن متحمساً لأخذه. أتساءل عمَّا اذا كان مجدياً أن أعود اليه، وأعطيه بضعة فرنكات، ثم أُتابع تجوالي.

ينحدر الرصيف من جديد، إلاَّ ان انحداره شديد هذه المرة. كان الطاعنون في السن من المارة الذين يسيرون في الاتجاه المعاكس يلهثون. بعضهم أنهكه السير فوقف مستنداً الى جدار مبنى أو جذع شجرة. أراقب بفرح طفولي قدميّ وهما تخبطان الرصيف. أكاد أصطدم بعجوز يرافقها كلب كأغلب عجائز المدينة. فأرفع رأسي. وفي التفاتة عابرة الى الوراء أُلاحظ ان العجوز تحدّق فيّ وهي تحتضن كلبها وتداعبه. هل كانت

تنتظر منّي اعتذاراً؟.. ولكن لماذا أعتذر؟ أقول في نفسي من دون أن ينتابني أي احساس بالذنب.

الانحدار يخف شيئاً فشيئاً، ثم يستوي الرصيف، إلاّ أنه يضيق قليلاً. علو البنايات يتضاءل وهيئتها توحي بأنّها قديمة جداً ومهملة. في بعض النوافذ دراجات وصفائح وقصاع وسطول وأكياس مختلفة الحجوم. وفوق احدى العمارات هوائي تلفزيون مستدير ضخم. بعد بضعة أمتار يتقاطع البولفار مع زقاق طويل. الحركة فيه على أشدها، وعلى جانبيه يحتشد رجال ونساء أغلبهم زنوج. وعلى الطريق المعبدة صف طويل من سيارات وشاحنات لا ينقطع زميرها.

أصل إلى «فيديو القرن العشرين» الذي أحبّه فأدلف الى الدكان دون تردُّد اسطوانات اللازر مرتبة بعناية وذوق. من اسمهان الى زينات الوهرانية. ومن صليحة التونسية الى دجورد جورا. ومن ادوار صالح عبد الحي إلى الطرب الغرناطي المغربي. أتوجه بسرعة الى قسم الموسيقى التونسية، وأشرع في تقليب الاسطوانات متوقفاً طويلاً عند بعضها. منتخبات المالوف التونسي، نوبة الذيل: استفتاح ومصدر الأبيات، بطايحي اول وثان، توشية، براول ناعورة الطبوع. منتخبات المالوف التونسي، نوبة الاصبهان. نوبة العراق: استفتاح ومصدر الأبيات الخ.. مالوف تونسي: وصلة أصبعين، وصلة سيكاه، وصلة رأس الذيل. الشيخ العفريت: ليام كيف الريح، كيف كنت صغيرة، قد ما عملت معاك، لامني في حبك، أشبيك غضبانة. الهادي الجويني: فوق الحنة، لو كان موثر الصبر يطفي ناري، اليوم قالتلي، يا للي عيونك في السماء، شيري حبيتك، تحت

الياسمينة، وصلة موشحات. الموسيقى اليهودية العربية، الجزء الثاني: الزين الزين، بنات شمامة. حبيبي غاب، ليلى سفاز. عدالة يا عدالة، قريتنا درامون. يا محلا الفسحة، حبيبة مسيكة. على باب دارك، لويزا التونسية. سلمت انا فيك يا بلادي، راوول جورنو.

بعد الخروج من الدكان تتملكني رغبة قوية في الجلوس، ليس لأنَّني تعبت أو لأن المتعة التي كنت أجدها في المشي في ذلك الصباح بعد الفرار من أمِّي قد تلاشت، وانما لأن أحد هذه المقاعد الخشبية المتناثرة على رصيف البولفار قد أعجبني. طلاؤه الأخضر لم يتقشر كما في أغلب المقاعد الأخرى، والأرض المحيطة به نظيفة، فلا قوارير وعلب كرتونية فارغة ولا ورق وبقايا سندويشات متيبسة ولا قشور برتقال او تفاح او بيض..

أتهالك عليه، وأمد ساقي قدر الامكان، ثم أبسط ذراعي على طول المسند، وألقي برأسي الى الوراء. أتمنى وأنا أتأمل السماء ألاَّ يأتي أحد ويجلس بجواري فيفسد عليّ خلوتي. بعد برهة أكتف ذراعي وأستوي في جلستي. تقع عيناي على مغسل على الرصيف الآخر. كان خالياً إلاَّ من فتاة جالسة بالقرب من المدخل تطالع جريدة لم أتمكن من معرفة اسمها رفعت رأسها، ثم نهضت ودست الجريدة بعد ان طوتها في جيبها. تمطت قليلاً وهي تتثاءب، ثم توجهت الى إحدى الغسالات، وشرعت في اخراج ملابسها.

أستدير قليلاً فأتفطن الى أنَّني جالس أمام دكان يقف داخله شاب قصير القامة. كان باستطاعتي من هناك أن أتبين ملامحه الهندية، وأن أرى بوضوح الناب الذهبي في فمه حين يضحك أو

يتحدث الى الزبائن. رغم ذلك بدا لي في لحظة ما أنَّه يشبه زوج أختي الذي يريد ان يصطحبني الى بوعرعارة للتنزه بين القبور. كانت واجهة الدكان محشوة بالبضائع، أمَّا المدخل الذي كُدِّست فيه أكوام من كل ما يخطر على البال من السلع فهو ضيق جداً.

أنهض، وأتقدم بضع خطوات وأنا أتساءل عمَّا اذا كنت سأفعل نفس الشيء لأمي لو لم تكن معها فراريج. الغريب في الأمر أنَّني لم أفكّر ابداً فيما يمكن أن يحدث لها حين تركتها وحيدة في مدينة يبدو أنها لا تعرفها حتى في الحلم. أتوقف وألتفت إلى الوراء. البولفار الآن خلفي. ألقي نظرة سريعة على المباني التي تقوم في نهايته. مرآب سيارات. مدرسة ذات باب خشبي ضخم. مقهى صغير على رصيفه الضيق ثلاث طاولات متلاصقة تنتظر الرواد. أدخل يدي في جيوبي، وأتلمس مفاتيحي مثلما فعلت في بداية الجولة، ثم أبتعد ممتلئاً بأصوات وألوان وروائح، منتشياً، خفيفاً كالهواء..

- 10 -

شيئاً فشيئاً انتظمت حياة حمودة وفق ايقاع سيحكمها لفترة طويلة. ينهض باكراً وهذا ما يحبه ويفعله حين كان يتاجر بالأبقار. يحمل قفة الطعام التي تكون حضرية قد أعدتها له تلبية لرغبته اذ انه يرفض تماماً أن يتناول شيئاً في هذه المطاعم الصغيرة القذرة التي يتردّد عليها زملاؤه، ثم يغادر البيت متوجهاً الى مكان الشغل.

يقطع كل المسافة مشياً على الأقدام لكي يتجنب ركوب الحافلات وخصوصاً قطارات المترو. لا يبذل جهداً في ذلك، بل

لا يشعر بأي تعب. فهو يحب المشي خصوصاً في الفجر او الصباح الباكر حين تكون الأرصفة هادئة ونظيفة وخالية إلاّ من هؤلاء المتشردين النائمين مع كلابهم الذين لم يعد يخافهم منذ ان اكتشف انهم لطفاء خفيفو الروح.

ومنذ ان تعلَّم حمودة مهنة تشغيل أو قيادة الآلات الميكانيكية المطلوبة صار يختار بحرية تامة ورشات البناء. لا يقبل الشغل إلاّ في تلك التي تفصلها عن بيته مسافات لا ترغمه على ركوب الحافلات وقطارات المترو، مضحياً أحياناً بالفرنكات الاضافية التي كان يمكنه الحصول عليها لو وافق على العمل في ورشات ضخمة بعيدة، بعضها يوجد في ضواحي خطرة أو أحياء تمنعه حضرية من وضع رجله فيها لكثرة ما يروَّج عنها من قصص مروعة.

وحالما ينتهي من الشغل يعود إلى البيت. يفعل ذلك بانتظام، فهو يعرف جيداً ان حضرية تنتظره بالقرب من الباب جالسة على كليم مفروش في الممر وأحياناً واقفة استعداداً لاستقباله. وحين يتأخّر قليلاً تشعر بالخوف وتستولي عليها الهواجس فتفقد تماسكها وتضبّع كما تقول خصوصاً في الشتاء أو نهاية الخريف اذ يهبط الليل فجأة، ويطبق الظلام على كل شيء بسرعة عجيبة.

لا يتضايق حمودة من سلوك حضرية وقلقها الدائم وخوفها عليه وان كان يرى في ذلك كثيراً من المبالغة فقد كان هو ايضاً شديد الحرص على ألاّ يتباطأ او يجلس في مقهى او حتى يتوقف أمام واجهات الدكاكين. كان يدرك جيداً أنَّه يمر بفترة حساسة يحتاج فيها الى كل فرنك خصوصاً منذ ان أخذ يتردّد على عيادات الأطباء

لمعالجة حويناته المنوية الكسولة. كان يعرف ان المغريات والمتع كثيرة في هذا البلد وانه لا بدَّ للانسان من ان يضبط نفسه ويتحكم في شهواته، وألاَّ يستسلم لها إلاَّ في مناسبات وأوقات محدّدة، وهذا ما كان يفعله حمودة وحضرية. فقد كانا ايضاً مقتنعين بأنَّه لا حياة بدون التمتع بين وقت وآخر بملذات الدنيا ومباهجها.

بعد أيام من اقامتهما في شقة السوناكوترا أخذا يتعرفان على جارهما الباجي بائع الخضر والثمار الجوّال الذي يقيم في الشقة المقابلة لشقتهما مع زوجته وأمه وأبنائه الثلاثة. تقع الشقتان في نهاية ممر قصير يؤدّي اليه سلم يتكوَّن من بضع درجات. كان بابا الشقتين المتقابلتين قريبين جداً إلى درجة ان حمودة وحضرية كانا يشعران في البداية بحرج كبير حين يخرجان من البيت او يدخلانه خصوصاً ان زوجة جاره أو أمه لا تغلق الباب في بعض الأحيان، وانما تتركه مفتوحاً او مواربا.

إلاَّ ان هذا الاحساس بالحرج سرعان ما تبدَّد ليحل محله احساس بالاطمئنان والارتياح والثقة، فلم يكد ينقضي شهر واحد على استقرارهما في الشقة حتى أدركا أنهما محظوظان، ليس فقط لأن جارهما تونسي وهو ما كانا يتمنيانه، وإنَّما ايضاً لأن هذا الجار الذي، والحق يقال لم يرتاحا في البداية لا لشكله ولا لسلوكه ولا حتى لطريقته في الكلام خصوصاً انه من منطقة باجة أو فريقا كما يصرّ حمودة ان يسمِّيها، هذا الجار وزوجته وأمه وحتى أولاده الثلاثة كلهم عسل وسمن كما تردِّد حضرية بحماس على كل مَن يريد أن يستمع اليها. وبالرغم من انهما لم يعاشراه طويلاً اذ انه اضطَّر بعد عام وبضعة شهور الى مغادرة باريس للإقامة في احدى ضواحيها، فإنَّهما لم ينسياه ابداً، كلما تحدّثا

عنه وعن عائلته عبَّرا عن اعجابهما وتقديرهما لهم. وحتى في غمرة الحج فإنَّ حضرية لم تنسهم، فقد تذكرتهم جميعاً، ودعت لكل واحد منهم بالبركة.

والحقيقة ان هذا الاحساس بالإرتياح والثقة والاطمئنان الذي تحوَّل بسرعة الى اعجاب وتقدير ليس ناتجاً فقط عمَّا يتمتع به أفراد هذه العائلة من خصال، وإنَّما ايضاً عمَّا قدَّموه من مساعدات ونصائح لحمودة وحضرية سهَّلت اندماجهما في وسط سكان العمارة، وفتَّحت عيونهما على أشياء كثيرة وجنَّبتهما الكثير من المتاعب التي يواجهها كل الذين يريدون ان يستقروا في هذا النوع من العمارات او غيره خاصة اذا كانوا قادمين من الأرياف البعيدة.

كان واضحاً ان بساطة حمودة وحضرية وطيبتهما الريفية وسلامة طويتهما هي التي جعلت الباجي وكل أفراد عائلته الذين لم يعرفوا سوى المدن وما شابهها يتعلّقون بهذا الرجل ذي الوجه المتميز الآسر وهذه المرأة الممتلئة الجميلة اللذين لا يشبهان المهاجرين ويقيمان وحيدين رغم تقدمهما في السن في الشقة المقابلة تماماً لشقتهما.

لم يدّخر الباجي جهداً في مساعدة حمودة. ينصحه بتواضع، وحين يستشيره في أمر يشرحه له، ثم يترك له حرية الاختيار. يترجم له كل ما يستلمه من وثائق رسمية، ويرد على ما يستوجب منها الرد مجنباً حضرية مشقة البحث عمن يقوم لها بذلك كما كانت تفعل قبل حصولهما على الشقة. وأحياناً يرافقه الى مكتب البريد او مصلحة الكهرباء والغاز أو مكتب الايجار في مؤسسة السوناكوترا ليترجم كل ما يريد ان يقوله فيتمكن من ان

يعبّر عن قصده بهدوء ووضوح، وبدون ان يرتبك او ينسى شيئاً كما كان يحدث له غالباً حين يكون وحيداً.

والباجي هو الذي نبّهه الى أشياء لم يكن يعيرها أي اهتمام او لم تكن تخطر بباله أشياء تبدو تافهة، لكنها أساسية في التعامل مع الناس وضرورية اذا كان الانسان يقيم في شقة بعمارة كبيرة سكانها المغتربون من جنسيات وأعراق مختلفة، ويشتغل في ورشات بناء تختلف في كل شيء عن مطعم الغمراسني. وهو الذي علّمه كيف يرتاد المقاهي التي لم يكن متحمساً للجلوس فيها بدون أن يعرّض نفسه للخطر او ماله للتبذير. وكالعادة لم يحاول ان يفرض عليه رأيه ولم يرغمه على القيام بأي شيء، وانما فعل ذلك بهدوء. في البداية حمله الى مقهى يوجد داخل العمارة بالقرب من مدخلها الرئيسي لا يرتاده سوى المغتربين. شيئاً فشيئاً أحب حمودة المكان فعاد الى لعب الورق الذي كان يمارسه في الحانوت بالهوارب، بل وأخذ يسمح لنفسه في أوقات محدّدة بشرب قليل من البيرة. وفيما بعد بدأ يحمله الى مقاهي الحي القريبة التي اكتشف انها ليست خطرة كما كان يخيل له عندما كان يمر أمامها مكتفياً بالتطلّع بحذر الى داخلها.

في تلك المقاهي تعرَّف على توانسة آخرين ما كان ليتعرف عليهم على الأرجح طوال حياته لو بقي في الهوارب. قراقنة. مهادوية. جنادبة. نوابلية. جرابة. قفاصة. مساكنية. سواحلية. كوافية. بنزرتية.. هناك أيضاً قابل عادل الطالبي للمرة الأولى، كما تعرَّف على أول حاج يلتقيه في فرنسا، وهو أول من قال له ان اداء فريضة الحج من فرنسا ليس صعباً وان باستطاعة أي انسان ان يحقّق هذه الأمنية العزيزة اذا عرف طبعاً كيف يتدبّر

الأمور.

والباجي هو الذي دلَّه على أهم الدكاكين والمحلات التجارية في الحي. الجزار الذي لا يغش، الخباز الذي يبيع الخبز العربي الشبيه بالجرادق. العطار الذي يبيع الحمص المقلي والهريسة والتمر الجيد وأغلب ما يحتاجه الانسان في شهر رمضان والأعياد كالسميد الدقيق والتوابل وخصوصاً الملصوقة الضرورية جداً لإعداد البريك.. ذات يوم حمله الى مطعم تونسي يختلف تماماً عن مطعم الغمراسني. وبالرغم من أنَّ حمودة أُعجب بالمكان وأحب صاحبه الذي كان يردّد أنَّه يطبخ أجمل مقرونة في كل الحي فإنَّه لم يعد اليه ابداً، فحمودة الذي غيَّر رأيه في المقاهي منذ ان اكتشف متعة الجلوس فيها بدون ان يبذر ماله ظلَّ ينظر الى المطاعم بحذر شديد، بل ويخشى التردُّد عليها لكثرة ما يروّج عنها من قصص مرعبة، فضلاً عن انه لم يكن أبداً مقتنعاً بجدوى الذهاب الى مطعم، اذ ماذا يعني ان يجلس انسان الى طاولة بين أُناس لا يعرفهم، ويشرع في الأكل وهم يتطلعون اليه؟

ثمة سبب آخر غامض وغريب جعل حمودة يتطير قليلاً من ذلك المطعم رغم اعجابه به وبصاحبه الظريف وهو انه شاهد فيه شاباً قِيل انه جاء خصيصاً من تونس للبحث عن عم له انقطعت أخباره تماماً. لم يعر الباجي الذي يرافقه الخبر أي اهتمام، لكن حمودة ارتجف فور سماعه، فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يعرف فيها ان هناك أُناساً يضيعون، تماماً مثلما تضيع الأشياء الصغيرة. أُناس مثله تلتهمهم الحياة، فتنقطع فجأة أخبارهم.

وفي فترة ما أصبح حمودة يثق ثقة تامة بالباجي الى درجة انه خطر بباله ان يفشي له سرّه الكبير، سر حويناته الكسولة التي

لولاها لما ترك بيته في الهوارب وتغرّب. إلاّ أنّه تخلّى عن تلك الفكرة بسرعة بعد ان استشار حضرية التي رفضت ذلك بلهجة غاضبة.

المساعدة التي قدّمتها زوجة الباجي وأُمّه لحضرية لا تقل أهمية عمّا تلقاه حمودة وان كانت مختلفة، فالزوجة التي تصغر زوجها بأعوام كثيرة وتفوقه جمالاً علّمتها كيف تشتري من الملابس ما يناسب لون بشرتها وخصوصاً جسدها الممتلىء وكيف تختار الألوان وكيف تمشّط شعرها الأسود الطويل بعد ان أقنعتها بالكف عن دهنه بزيت الزيتون، وكيف تضع ماكياجاً خفيفاً يزيدها جمالاً بدون ان ينتبه اليه الرجال.

علّمتها كيف تبتسم للنساء اللاتي ينظرن اليها بإعجاب او تعاطف، وكيف ترد على أسئلتهن لكي لا تبدو ريفية متخلفة، وكيف تسلك وتتعامل مع الرجال عرباً كانوا أم أجانب حين يغمزونها او ينظرون بإلحاح إلى الأماكن المثيرة من جسدها، أو حين يقتربون كثيراً منها، أو يسيرون خلفها لوقت طويل كما يفعل هؤلاء، الأوباش الذين لا همَّ ولا عمل لهم سوى مطاردة النساء في الأسواق.

كانت تفعل ذلك بذكاء شديد مبدية محبتها لها. تتجنب كل ما يمكن أن يجرح حضرية، أو يدل ولو من بعيد على انها لا تقدّرها بسبب أصلها الريفي. وفي أغلب الأحيان كانت توحي بالشيء او تكتفي بالتلميح اليه، فقد كانت على يقين من ان حضرية ذكية تفهم من الاشارة.

بين وقت وآخر تريد ان تحملها الى أماكن تحبها هي مثل مقر جمعية التونسيات المهاجرات الذي كانت تتردّد عليه آنذاك

لمجرد الالتقاء بامرأة جميلة وجريئة ومثقفة اسمها سعاد. لكن الحاج لا يسمح لها بذلك، ليس لأنَّه لا يثق بزوجة الباجي التي يعزها كما لو انها ابنته، وانما لأنه يجتنب بدافع حس غريزي قوي كل هذا النوع من الأمكنة.

أمَّا أُمّ الباجي النشطة رغم تقدمها في السن والتي كانت تحب حضرية مثلما تحب كنَّتها فقد علَّمتها ان تطبخ أطباقاً لا يعرفها الريفيون كالكسكسي بالحوت والقناوية والمرمز وان تستخدم المكواة الكهربائية التي كانت تتجنب استعمالها اذ ان حضرية تخاف من كل ما له علاقة بالكهرباء والغاز والميكانيك، كما علَّمتها أشياء صغيرة لم تكن تعيرها أدنى اهتمام: كيف تطوي الملابس لكي لا تندعك كثيراً. كيف ترفو ثوباً بدون ان تترك اثراً واضحاً لذلك. كيف يمكن ازالة الغبار من الأمكنة المنزوية التي يصعب الوصول اليها.. أشياء بسيطة ما كانت حضرية لتفعلها لو لم تكن حريصة على أن تكون في المستوى أمام هؤلاء المدينيين الذين يحبونها حقاً وعلى أن تكون إمرأة صالحة قدر الامكان فلا تخيب ظن سي حمودة بها.

بعد فترة طويلة تبيَّن لحمودة ان الراتب الشهري الذي يتقاضاه من أصغر ورشة بناء كافٍ لدفع ايجار الشقة وتغطية نفقات المعيشة ودفع أجرة الأطباء وحتى لتوفير مبلغ صغير. ولما أخذ الأطباء الذين يعالجونه يؤكّدون له ان الأدوية قد بدأت تُعطي مفعولها وخصوصاً ان حويناته المنوية الجديدة ستكون أقوى وأسرع من السابقة، وان الاخصاب لم يعد سوى مسألة وقت تغيَّرت حياة حمودة وحضرية، وان ظلَّت تخضع في جوهرها لإيقاعها القديم.

هذا التغيُّر لم يحدثه الخبر السار فقط، وانما كان ايضاً وليد رغبة في استغلال فرصة وجودهما في باريس للاستمتاع بالحياة اكثر مما فعلا حتى ذلك الوقت. رغبة جامحة لم يستطع لا حمودة ولا حضرية ايقاف تناميها الدائم. رغبة لا تؤدّي الى التبذير طبعاً أو القيام بأشياء لا تليق بهما، وانما تدفعهما الى ترك الشقة والخروج الى المدينة اكثر من قبل خصوصاً انهما لم يعودا يتحملان المكوث فيها طويلاً منذ ان غادر الباجي وعائلته الى الضاحية. رغبة في التفرُّج على عالم كامل ظلَّ حتى ذلك الحين بعيداً عنهما.

لم يعد هناك أي مبرر للخوف والحذر الشديد. كل شيء تقريباً على ما يرام. الشغل مضمون أكثر بكثير مما كان يتصور. حتى في الحلم لم يكن يتوقع ذلك. والمال الذي يحصل عليه كاف جداً اذا عرف الانسان كيف يتصرف فيه، والغاية التي جاء من أجلها الى هذه المدينة سيبلغها دون شك قريباً. ومجتمعه الجديد أخذ ينفتح له شيئاً فشيئاً منذ ان قاده الحظ الى عائلة الباجي، فما الذي يمنعه بعد الآن من ان يشتري لنفسه وخصوصاً لحضرية ما حرَّمه عليهما طوال أعوام؟ أي ضرر في ان يرافق حضرية كما يفعل أغلب الرجال الى الأمكنة التي تريد ان تذهب إليها لكي تتفرّج عليها بعينيها فقط كما تردّد عليه لإقناعه؟

كانا قد سمعا الكثير عن مراكز تجارية كبرى يوجد فيها كل ما يخطر على بال الانسان، وعن محلات واسعة جداً تركض فيها الخيل كما يردّد كل الذين يعرفونها. ولذلك فإنَّ أول شيء أرادت حضرية القيام به هو الذهاب إلى محلات تاتي خصوصاً تاتي

باربيس الذي يمتدحه الجميع فضلاً عن انه ليس بعيداً جداً عن البيت.

لم يكن حمودة معتاداً على المشي جنباً إلى جنب مع حضرية، فقد كان دائماً يتقدمها ببضع خطوات كما يفعل كل الرجال في الهوارب. وحضرية نفسها ما كانت لتقبل السير الى جانبه تقديراً له. ولكن المشكلة ان ذلك غير ممكن هنا إلاّ في أوقات قليلة وفي أمكنة خالية وآمنة لا يخشى فيها ان يحدث شيء لحضرية كأن تُسرق حقيبتها اليدوية، أو يُنشل سوارها الذهبي وهو الشيء الوحيد من حليّها الذي تصر على وضعه كلما أرادت ان تتزين، أو كأن يضع أحدهم يده على مؤخرتها، او يتجرأ على الذهاب أبعد من ذلك فيدس اصبعه فيها كما يفعل هؤلاء الأوباش لبعض النساء معتقدين أنهن وحيدات.

بعد عبور مسافة قصيرة وسط سيل بشري عثر حمودة على حل نهائي لتلك المشكلة. سيظل يسير أمام حضرية اذ أنه لا يمكنه ابداً ان يسمح لها بأن تكون بجانبه، لكنه لن يتقدمها إلاّ بخطوة واحدة، كما يجب ألاّ تمشي وراءه تماماً، وانما بشكل مواز له. هكذا تكون قريبة وتحت المراقبة. فيكفي ان يستدير قليلاً برأسه ليراها ويراقب ما يمكن ان يحدث حولها.

في البداية كانا يقضيان كل الوقت في التنقل من جناح الى آخر ومن طابق الى آخر صاعدين او نازلين السلالم الميكانيكية التي تعوَّدا عليها بسرعة رغم خوفهما منها في الأيام الأولى. حضرية تقلب البضائع مبدية ملاحظات دقيقة حول جمالها او ألوانها او حجومها او فوائدها، وحمودة يتطلع بانتباه شديد الى الأسعار مسجلاً منها بعض ما كان يلفت انتباهه في دفتر صغير

تماماً مثلما كان يفعل حين كان يتاجر بالأبقار، ومبديا ا-.ااا استغرابه من غلائها بعد ان يبحث عمّا يعادلها بالدينار التونسي. كان يفعل ذلك بانتظام فقد كان يدرك جيداً ان هذه الأسعار هي مجرد أرقام بالنسبة له ولحضرية ايضاً وانها لا تكتسب دلالة إلاّ عندما يحوّلها الى الدينار.

وعندما يصيبهما التعب ويتفقان على العودة إلى البيت يقود حمودة حضرية الى جناح الحلويات، ويشتري لها قليلاً من الكعك باللوز أو بجوز الهند او خبزاً بالزبيب او حلوى تأكلها في الليل حين يأويان إلى الفراش ويستسلمان الى حميميتهما.

بعد اشهر أخذت حضرية تتردّد على جناح الأطفال والرضع الذي صار يجتذبها أكثر من كل الأجنحة. ومنذ ان شرع الجنين يعلن عن نفسه بحركات واضحة في بطنها بدأت تشتري بين وقت وآخر ملابس ورضاعات ووسائد ومصاصات وأغطية. وعندما يقول لها حمودة أن الوقت لم يحن بعد لشراء مثل هذه الأشياء ترد عليه بأنَّ أشهر الحمل تمر بأسرع مما نتصور وانَّ من الأفضل بدء الاستعداد مبكراً.

لم يكد يمضي وقت طويل على ذلك حتى شرعت في القيام بأشياء لم تكن تخطر ابداً ببالها، وما كانت لتنجزها لو لم تأمرها بها الطبيبة التي كانت تفحصها بين وقت وآخر منذ ان حبلت. توقفت عن تناول عدد من الأطعمة والمواد الغذائية، وكفَّت عن القيام بأعمال تعتبرها الطبيبة خطرة في تلك المراحل من الحمل. إلاّ ان ما كان يزعجها ويبدو لها ولحمودة ايضاً غريباً هو هذه التمارين العجيبة التي ينبغي ان تقوم بها كل يوم للتخفيف من وزنها، فقد أفهمتها الطبيبة بأنّها أسمن بكثير مما يجب.

كانت حضرية تعرف جيداً انها ازدادت سمناً، لكن ذلك لم يكن يضايقها ابداً، فحمودة يحبها كما هي الآن. بيضاء كالحليب كما يقول احياناً بإعجاب شديد. وسمينة مكتنزة الصدر والذراعين والمؤخرة. هذا السمن يطمئنه على ما يبدو. يمنحه نوعاً من التماسك والثقة بالنفس، فضلاً عن انه يمكنه من ان يشبع جيداً شهوته، اذ اية قيمة، كما يقول لها احياناً، لإمرأة نحيلة مثل عود البرواق؟ وهل يمكن لرجل ان يبني ويعمّر على امرأة هزيلة كالدودة؟

في تلك الفترة بدأت تتولد في نفسي حمودة وحضرية أحاسيس جديدة منحت استعدادهما بعداً آخر. أحاسيس لذيذة تنتاب الذين يتأهبون لإستقبال رضيع طال انتظاره. وكلما ازداد البطن تكوراً تعمقت هذه الأحاسيس خصوصاً لدى حضرية التي استولى عليها تماماً هذا الكائن الجديد الى درجة انها صارت تحدثه بصوت مرتفع لكي يسمعها جيداً كما تقول، كل يوم، في الليل قبل ان تستسلم للنوم، وفي الصباح حالما تفتّح عينيها.

وأحياناً، فيما يكون حمودة غارقاً في الاستماع الى اذاعة عربية عثر عليها وهو يدير ابرة جهاز الراديو الضخم الموضوع على طاولة في احدى زوايا غرفة النوم، تتمدّد حضرية على الفراش وتدس يدها تحت الملابس وتشرع في الحديث وهي تتلمس بطنها، غير مهتمة بما يفعله حمودة وغير عابئة بما يمكن ان يشعر به. ولأنها رفضت بشدة اقتراح الطبيبة لمعرفة جنس الرضيع اذ ان ذلك حرام في حرام كما أكّد لها حمودة، فقد كانت تتحدث تارة عن ذكر، وتارة عن أنثى.

نسمّيه مصطفى ليكون غنياً ومحبوباً ومحترماً مثل جدّه،

تقول دون ان تكف عن تلمس بطنها، او نمنحه اسم جده الاخير محمود. مصطفى بن حمودة بن مصطفى. أو محمود بن حمودة بن مصطفى. كلاهما جميل. كلاهما يصلح ان يكون إسماً لشخصية بارزة. فأيّهما نختار؟ الصواب أن ننتظر قليلاً. بعد ثلاثة أو أربعة أيام تتحدّد ملامحه ونعرف أي دم جذبه، دمكم او دمنا. هكذا نحل المشكلة، ونمنحه اسم مَن يشبه.

البنت لا تسبب أية مشكلة، فهناك اسم واحد. العكري. اسم دادا الجميل. لا أحد يرفض ذلك وكل مَن يقترح اسماً آخر يظلم دادا العكري التي ظلت حتى اللحظات الأخيرة من حياتها تقنع حمودة ابنها الباقي الوحيد بفكرة الزواج لينجب لها حفيداً يطمئنها على أن نسلها سيستمر بعد موتها. لا يهم الشبه، وان كنت أحس أحياناً بأنّها ستكون مثل دادا. سيكون لها نفس الطول ونفس الوجه. وستكون ايضاً عاقلة رصينة مثلها.

منذ البداية سأعوّده على حليبي. ليس هناك ما هو أحسن من حليب الأم، فهو خلافاً لحليب الحاكم الذي لا نعرف مصدره حليب حلال صافي. نعمة وفضل من عند ربّي كما تردّد بعض النساء اللاتي كنت التقيهن أحياناً في المستشفى. سأعوّده ايضاً مبكراً على أكل الياغورت وعسل النحل والموز ليكبر بسرعة وليكون قوياً ومعافى. سأهتم كثيراً بنظافته. أغسله كل يوم كما نصحتني الطبيبة. وبدلاً من صابون مرسيليا الذي يفضّله الحاج على كل أنواع الصابون سأدلكه بالصابون الصغير المعطر. سأسرح شعره بمشط ناعم الأسنان لكي لا يشعر بأي شيء. سأطلي جسده بالطلق وأضمّخه بماء الورد ليلتذ كل مَن ينحني عليه او يقبّله او يحتضنه برائحته. سأحرص على أن يكون دائماً

في البيت ما يكفي من الحفّاظات لألفّه بواحدة نظيفة حالما ينتهي من قضاء حاجته.

حين يبلغ العام من العمر أشتري له سلسلة صغيرة من الفضة ربما من الذهب وفراشاً يشبه تماماً فراش الابن الأصغر للباجي اذ لا يمكن ان يظل ينام إلى ما لا نهاية له بيننا. وفي النهار أضعه هناك، وانصرف الى شؤون البيت وأنا مطمئنة متأكّدة من انه في مأمن مما يمكن أن يحدث للرضع حين يكونون وحيدين. ودفعاً لأي مكروه ولكل عين شريرة سأعلق في عنقه حجاباً فقد علمت بالصدفة ان رجلاً من سكان العمارة يكتب الأحجبة وأنه يفعل ذلك لله في سبيل الله. وحين يصر أحد على ان يدفع له مقابلاً مالياً فلأنّه لا يقبل إلاّ مبلغاً زهيداً.

وعندما نطهّره نقيم حفلة. ستكون أكبر وأحسن من كل الحفلات لكي لا ينساها أحد. نفعل ذلك في الهوارب طبعاً عندما نعود نهائياً. لا بدَّ أن يكبر الطفل قليلاً. يجب ان ننتظر بعض الوقت عامين او ثلاثة. هذا ما اقترحته عليّ الطبيبة لمتابعة نموه. سأهدي له أغنية «طهر يا مطهر» في «ما يطلبه المستمعون». وسأشتري له ملابس جميلة من القيروان.

سألح عليك، تقول وهي تلتفت الى حمودة المنهمك في الاستماع الى الراديو، وسأقنعك بأن تحملني الى القيروان بالسيارة التي سنشتريها فيما بعد حين تتحسن أحوالنا طبعاً. ولكي نكون أحراراً، ولكي لا يقدم لنا احد مزية او خدمة يظل يذكرنا بها طوال حياته سأظل أحدثك في الموضوع. لن أتركك لحظة واحدة يا سي حمودة الى ان تشمّر عن ساعديك وتترك جانباً هذا الخوف وتتوكل على الله، فتبدأ في تعلّم السياقة لتكون لك يا سي

حمودة رخصة سياقة. لا شيء ينقصك. قليل من الثقة. هذا كل ما في الأمر. ماذا سيقول عنك الناس لو سلمت مقود سيارتك لرجل آخر؟

سأطبخ أطباقاً كثيرة نقدّمها خلال مأدبة كبيرة نقيمها ليلاً. أطباق لذيذة من بينها تلك التي تعلّمت طبخها من أُمّ الباجي. في الساحة المبلّطة ننصب ثلاث أو أربع طاولات، ونضع فوقها أغطية بيضاء مطرزة الحواف اشتريها من تاتي فقد لاحظت انها رخيصة. ونستدعي من نشاء من أعيان الهوارب. سنفعل مثل الفرنسيس. نجلس متقابلين. ونوزع على الضيوف ملاعق وسكاكين وشوكات ومناديل من الورق تماماً مثلما يفعل الفرنسيس. لكي تبقى حفلة الطهور حديث الداني والقاصي. سنشعل طبعاً الفنار الذي اشتريته مؤخّراً ليبهر المكان بضوئه القوي. أمّا العقارب التي لا تزال تتسلّل الى الساحة حتى بعد تبليطها بالاسمنت فسنكلف بها بعض الأطفال. نوزعهم على طول سياج الساحة ليتمكنوا من مراقبة كل نقاط العبور المحتملة. وهكذا حالما يشاهدون واحدة من تلك الدويبات البشعة تتقدم من الطاولات بسرعة كعادتها رافعة ذيلها استعداداً لدس سمها في لحم كل من تصادفه في طريقها نأخذ حذاء قديماً ونهب لقتالها ثم دعسها انتقاماً منها. واذا شئت نشتري من تاتي رشاشة مبيد الحشرات. نختار أقوى مبيد، ونظل نرشها به بعد ان نحاصرها حتى تموت.

لا بدَّ ان نفعل نفس الشيء للبنت. يجب ان نعاملها تماماً مثلما نعامل الولد. نختار احدى المناسبات كالفطام او بلوغها العام الثالث او بروز أسنانها. ونحتفل بالعكري الصغيرة احتفالاً

كبيراً يليق بها وبالمرحومة دادا. سنقيم ايضاً وليمة كبيرة لتبقى المناسبة حديث الناس في الهوارب والقرى المجاورة.

كل شيء جاهز الآن.

الأمور تسير على أحسن ما يرام، وحمودة فخور بما تمكَّن من انجازه خلال أعوام قليلة، وسعيد حقاً بهذا التحوُّل الهائل الذي أحدثته حويناته في جسد حضرية وإن أخذ يتساءل في الأيام الأخيرة التي اشتد فيها بطن زوجته انتفاخاً عمَّا اذا كانت الطبيبة على حق حين أرغمتها على القيام بهذه التمارين العجيبة.

لا شيء بإمكانه أن يحول الآن دون ما يريد.. عليه ان ينتظر قليلاً بعد الولادة. ما يكفي من الوقت لتجاوز مرحلة الأمراض الخطرة التي تصيب الرضع. عامين او ثلاثة على أقصى تقدير. ثم يعود نهائياً. الى الحقل والبيت والحانوت. الى تجارة الأبقار التي يحبها والأسواق القريبة من الهوارب..

ينبغي عليه ان يشرع منذ الآن في إعداد قائمة الأشياء التي يجب ان يعود بها. وبالرغم من انه اشترى بعضها فإنَّه سيولي ذلك كل اهتمام لكي لا ينسى شيئاً. نعم يجب ألاَّ ينسى أي شيء اذ ماذا سيقول عنه الناس خصوصاً الحسّاد منهم لو عاد بدون زربية كبيرة مثلاً، أو بدون واحد أو اثنين من هذه الأطباق الكبيرة اللامعة التي يقبل الناس على شرائها في محلات تاتي؟

- 11 -

لو كنت أدري لترددت كثيراً قبل أن أُلبِّي دعوة عادل. لو كنت أدري لفعلت على الأرجح كل ما باستطاعتي لكي لا أقضي

معه تلك السهرة، سهرة الوداع كما صرنا نسمّيها رغم أنّنا التقينا مرتين قبل أن يعود نهائياً إلى تونس، اذ مَن يحب الاستماع طوال ساعتين الى رجل حساس مثل عادل يتحدّث بلهجة يمتزج فيها الحنين بالحزن عن أب بلغه نعيه قبل ساعات قليلة من ابتداء السهرة؟

طوال اللحظات الأولى كنت مرتبكاً متوتراً. لم أقل شيئاً لأنّني لا أعرف ماذا ينبغي أن أقول. لم أفعل شيئاً لأنّني لا أعرف ماذا يجب ان أفعل في مثل ذلك الظرف. كل ما كنت قادراً عليه هو ان أتطلع اليه بانتباه كلما مدَّ عنقه او حرَّك قدميه او تقلَّب على جنبه مبدياً بذلك استعدادي للاهتمام بكل ما يمكن ان يبدر منه. حين يتفاقم توتري او تشتد وطأة الصمت أنهض مغادراً مكاني الى مكان آخر، أو أشرع في قراءة عناوين بعض الكتب المرتَّبة، أو أتوجّه الى قائمة التمور وأنواعها التي كنت أجد متعة حقيقية في تأمّلها.

يقترب منّي عادل فجأة فيكاد جسده يلامس جسدي، وللمرة الأولى في تلك السهرة يحدّق في وجهي كما لو أنّه يريد أن يتأكّد من ان اهتمامي به لم يتناقص، وانني لا أزال مستعداً للاعتناء بكل ما يفعله والتقاط كل ما يبديه من أحاسيس في مثل ذلك الظرف القاسي الذي داهمه اذ ان عادل لم يكن يتوقع اطلاقاً ان يحدث ما حدث رغم انه كان يعرف ان اباه المتقدم في السن يعاني منذ أعوام من مرض التهاب الرئة.

لم أستطع ان أحقق حلمه.. حاولت أن أنتقم له من أعوام الفقر والحرمان والألم، لكنّني فشلت نعم.. فشلت في كل شيء.. والأخطر من ذلك اني كنت أُخفي عليه الحقيقة.. كنت

أُكذّب عليه باستمرار.. يقول عادل بلهجة مَن يعترف بذنب أو يقر بهزيمة، ليس بهدف التخلّص من عبء نفسي ثقيل، وإنّما لتوريط ذاته تمهيداً لتأنيبها ومعاقبتها.

يحني رأسه قليلاً، ثم يسأل قبل أن يعود الى التحديق في وجهي هل تعرف مَن هو أبي؟ أُحرّك رأسي في ما يشبه الايجاب رغم انني لا أعرف عنه سوى أشياء قليلة رواها لي عادل في مناسبات متباعدة، أشياء بسيطة نسيت أغلبها، ولم أعد أتذكّر منها سوى ما هو أساسي كنزوحه من الجريد الى العاصمة بسبب فقره ومعاناته من مرض التهاب الرئة. يخطر ببالي وأنا أُصغي إلى حديثه ان أقول له ذلك، لكنّني أتخلّى عن تلك الفكرة بسرعة. ولكي أتخلص منها نهائياً استعيد اليوم الذي ذهبت فيه الى حديقة الليكسمبورغ بعد أن بلغني نبأ وفاة أبي. أتذكّر التماثيل والأشجار الضخمة. المقعد بجوار السياج الحديدي المرتفع. العجوز بقبعتها البيضاء وحذائها الأحمر الملمع التي كانت تنظر إليّ بانتباه يخالطه شيء من الحيرة وأنا أبكي، هي وكلبها القصير المجعد الوبر.

لا أحد يعرف ابي.. لا أحد يعرفه مثلما أعرفه.. يتابع عادل وهو يزداد اقتراباً منّي ويسقط بأعلى ظهره على كتفي بشكل يوحي بأنّه لم يعد قادراً على التحكّم في حركاته من فرط التأثر والحزن. حتى أُمّي التي تحبه وتقدره وتطيعه.. كانت عاجزة عن فهم صمته الطويل. والأخطر من ذلك غير واعية تماماً لما يتّقد في ذلك الجسد القصير الهزيل من طموحات ورغبات.. أُمّي امرأة بسيطة لا تطلب شيئاً وتقنع بالقليل. لا تشتكي من الحياة ولا تتبرم بها، وانما تقبلها رغم قسوتها.. أُمّي امرأة بلا طموح. احياناً يخيل إليّ ان كل ما يهمها من الحياة هو ان تكون معنا وان

نكون معها. ان نجلس في باحة البيت معاً. ان نتناول الطعام معاً. ان ننام معاً في الدار تحت سقف واحد.. كل الباقي بلا قيمة.. ليس مهماً ان نكون فقراء.. ليس مهماً ان ما نسميه دارنا بشيء من الافتخار والزهو حين كنا، أنا وأختاي التوأمان اطفالاً، ليس سوى معمورة أقل اتساعاً من بيتي.. ليس مهماً ألاَّ تتمكن أختاي اللتان يشهد لهما الجميع بالذكاء والفطنة من متابعة الدراسة خلافاً لأغلب بنات الجريد.. ليس مهماً ألاَّ نشتري ملابس حتى ولو كانت روبافيكا منذ فترة طويلة.. ليس مهماً ألاَّ نأكل لحماً حتى لو كان لحم قعود إلاَّ في مناسبات تُعد على الأصابع.. أمَّا أبي فهو يتعذب في صمته.. أبي رجل خجول وانطوائي ومتواضع، لكنه يتألم لأنَّه يريد لنا شيئاً آخر. يريد لنا بيتاً حقيقياً كأغلب البيوت. أبي لم يقبل أبداً الحالة التي كنا فيها، ولعلَّ السبب الأول لذلك هو احساسه الدائم بأنَّه هو المسؤول عن تلك الحالة. إحساس بدأ يراوده منذ ان تناهى اليه ان الناس يسمُّونه عمر النعجة استهزاء وتهكماً، وينسجون حوله حكايات كنت وأنا في تلك السن أفهم دلالاتها، فأبي الهزيل قصير القامة لا يشكو ولا يتبرم مثل غيره من الفقراء إلاَّ نادراً. يخفي غضبه وانفعاله في أغلب الأحيان. ولا شيء في سلوكه او مظهره يوحي لمَن لا يعرفه معرفة جيدة بأنَّه، خلافاً للصورة الرائجة عنه، رجل طموح حيّ الضمير عنيد يحب العمل ويدرك جيداً مسؤولياته، وبأنَّ ناراً تتَّقد داخل ذلك الجسد الهزيل.. أبي كان ايضاً يعبّر عن حبّه لنا وخصوصاً لي أكثر مما كانت تفعل أُمّي.. حين أطلب منه شيئاً ولا يقدر عليه يتوقف تماماً عن الكلام، ويتحاشى النظر اليّ تألماً دون شك.. لكنَّني كنت أرى كل ما لا يريد أن يقوله في عينيه اللتين تتسعان أكثر من العادة

وفي حركات يديه التي تصبح بطيئة كأنْ خدراً أصاب مفاصله..
يوم السوق الأسبوعي، حنين يفضل له قليل من المال بعد شراء ما نحتاجه يمسك بيدي وهو يبتسم، ثم يتقدّمني مسرعاً دون ان يقول شيئاً. أعرف إلى أين يقودني فأتبعه محاولاً الإلتحاق به. أراه من الخلف منحنياً إلى الأمام كأنَّ ريحاً خفية تدفعه الى حيث يريد ان يحملني. يشتري علبة حلقوم او حلوى بالزقوقو أو بالحمص، ثم نذهب الى ما وراء الرحبة لنجلس على جدار واطىء. يزيل ورق اللف عن قطعة الحلوى بحركة بطيئة ودقيقة لكي لا تسقط على الأرض، ويفتح علبة الحلقوم بحذر لكي لا يتساقط دقيق السكر الأبيض الذي يعرف أنَّني أحبه كثيراً، ثم يقدّم لي ذلك. في البداية لا يتكلم، وانما يكتفي بالنظر اليّ وبمراقبة شفتي وهما تنفتحان وتنغلقان بعينين تعكسان فرحاً كبيراً كأنَّه هو الذي يأكل. بعد لحظات يتكلم بين حين وآخر.. كول.. كلمة واحدة ينطقها بحماس وبنبرة لا تتغير. يفعل ذلك حين يلاحظ أنَّني صرت اتباطأ في المضغ او ان رغبتي في عجينة الحلقوم قد أخذت تتناقص. كنت أعرف أنَّه يفرح بأكلي، وكلما أبديت رغبتي في الأكل ازداد فرحه. أحياناً أُحرّك شفتي بسرعة وأنشط في المضغ. أُبالغ في ذلك من دون أن أصل الى حد ينفضح فيه أمري. كنت أريد أن يفرح فأفرح بدوري بفرحه.. ذات يوم فوجئت بدمعتين تنزلقان على خديه. لماذا تبكي يا أبي؟ لم يجبني. مسح الدمعتين وهو يقول لي بنفس الحماس وبنفس النبرة، كول.. لا شك انه بكى من شدة الفرح فقد تناولت كل ما اشتراه لي في ذلك اليوم بنهم كبير..

ذات مرة اشترى لي حذاء جديداً. نسيت المناسبة، لكنّي لا

ازال أذكر انها المرة الأولى التي أمسك فيها بحذاء جديد، فكل الأحذية التي انتعلتها في السابق كانت قديمة مستعملة. حذاء لامع بلون أبيض مائل إلى الصفرة ملفوف في ورق برتقالي داخل علبة كرتونية مستطيلة. لم يطلب منّي أن أرافقه الى السوق مثلما كان يفعل كلما قرّر ان يشتري لي شيئاً ما، فقد كان يريد ان يفاجئني بهدية لم أكن انتظرها.. لكنه نسي ان جسدي ينمو بسرعة في مثل تلك السن.. نعم.. أبي الذي يتذكر عادة كل شيء ويقرأ حساب كل شيء نسي تماماً في ذلك اليوم ان قدمي تكبران.. تزدادان طولاً وعرضاً..

أراه الآن وهو منحن على فردة الحذاء الموضوعة بعناية على الأرض امامه. يجلسني قبالته على مائدة واطئة، ثم يزم شفتيه، ويحدج الفردة بنظرة متوعدة كأنّه يستعد لمعركة طويلة معها.. ادخل رجلك يقول لي وهو لا يكف عن التحديق في الحذاء. أنفذ الأمر، لا لأنّني أرى جدوى في ذلك، وانما لأنّي أشفق عليه، ولا أريد ان ينفعل اكثر مما انفعل.. بعد محاولات كثيرة يرتفع الصوت، ترتعش اليدان، وتزداد العينان اتساعاً. ينحني أبي أكثر على الفردة، وبيديه الاثنتين يمسك بطرفها كي لا تنزلق وتظل ثابتة في مكانها.. ادفع رجلك.. الى الأمام.. ادفع رجلك بقوة.. أفعل ذلك بكل ما لدي من قوة.. أثبّت يدي مفتوحتين على الأرض لكي أتمكن من الاستناد الى ذراعي، ثم أندفع بكل جسدي الى الأمام، لكن الفردة اللعينة لا تريد ان تتسع فتستقبل كل قدمي.. إلاّ أنَّ أبي رجل عنيد كما قلت لك منذ حين، فهو لا ينهزم بسهولة، ولا يتخلى بسرعة عمَّا يريد تحقيقه، فالحذاء جديد ينفر كما يحلو له ان يردّد، وثمنه مرتفع،

ثم انه لا يستطيع ان يستبدله بحذاء آخر.. فقد اشتراه من بائع جوال يعرض أحذيته للبيع في خيمة ولا يأتي الى السوق سوى مرة واحدة في الأسبوع.. والأهم من كل ذلك هو أنَّ أبي يريد أن يشاهدني وقد انتعلت اول حذاء جديد في حياتي.. أبي يريد ان يراني أتنقل بخفة وفرح خابطاً الأرض بحذاء جميل..

يجلس على ركبتيه، ويزداد انحناء فيكاد يلامس الأرض بذقنه. يمسك الفردة بيده اليسرى. وباليمنى يدس قدمي داخلها، ثم يضغط بأصابعه على العقب الذي لا يريد ان يدخل.. ادفع رجلك.. ادفع يقول بصوت مرتفع غير عابىء بما يسبِّبه لي من وجع.. أبذل كل ما لدي من جهد محاولاً السيطرة على ألمي.. ساعدني.. يصرخ أبي.. ادفع يا ابن.. في تلك اللحظة يتماسك ويتحكم في أعصابه فلا يقول ما كان يود قوله. يتراجع قليلاً بجذعه، وبحركة يائسة يُلقي بالفردة على الجدار، ثم يغمض عينيه قبل أن يرفع يده الى جبينه..

كان «خدام حزام» كما يقولون.. طوال الفترة التي أمضاها في الجريد قبل أن يحزم أمره ويهاجر لم يكن سوى ذلك.. هل تعرف ما معنى خدام حزام؟.. عامل بسيط، لا شغل ثابتاً له ولا كفاءة مهنية. لا تأمين له ضد الأمراض ولا أمل له في معاش التقاعد. في أغلب الأحيان يشتغل لدى الخواص في الحقول او في البيوت او ورشات البناء.. يجني التمر او يسقي النخيل او يقلّم أشجار البرتقال والرمان. يحفر حفراً أو يغيّر مجرى السواقي او يستصلح الأرض.. يقلع الحجر او ينقل الرمل والحصى او يخلط الاسمنت..

ولم يكن الشغل متوفراً. يعمل يومين او ثلاثة في الاسبوع، ويتعطل باقي الأيام. كان يؤلمه كثيراً أن يقضي يوماً كاملاً بدون عمل. ينهض من النوم باكراً لأنه لا يريد ان تشرق عليه الشمس وهو لا يزال في الفراش. يغتسل بسرعة، وبدون ان يتناول شيئاً يغادر البيت متوجهاً الى حيث يمكنه ان يعثر على شغل ولو لبضع ساعات.. وحين يخفق في ذلك يعود الى البيت صامتاً كالعادة. ينزع حذاءه، ويتكوّر على نفسه بدون أن يخلع ملابسه، ثم يغمض عينيه. تجيئه أُمّي بالطعام، وتضعه قريباً من رأسه، وتجلس بجواره مبدية استعدادها لاطاعة أوامره او الاستماع اليه. لكنه لا يطلب شيئاً ولا يقول شيئاً. رغم ذلك تبقى أُمّي بجانبه وقتاً طويلاً، وحين يطول تنفسه ويبدأ صدره في الارتفاع والهبوط تنهض وتنصرف إلى أمورها..

كانت أختاي التوأمان لا تزالان رضيعين. أمّا أنا فقد كبرت كما كانوا يردّدون أمامي في ما يشبه التهنئة كما لو أنّي أنجزت شيئاً رائعاً استحق عليه الثناء والتبريك. أخذت أعي الى حد ما أغلب ما يحدث حولي، في البيت وخارجه. وبدأت أفهم ان الناس لا يتشابهون في الكثير من الأشياء وان هناك أغنياء وفقراء، وأنّ أبي ينتمي لسبب غامض الى فئة الفقراء. حين اكتشفت ذلك انتابتني أول كآبة في حياتي، وبدأت أُحدّث نفسي بصوت مرتفع بين وقت وآخر. ومنذ تلك السن المبكرة أخذت فكرة الانتقام تنبت كما الحبة داخلي.

أحياناً أهرب من البيت خوفاً من صمت أبي حين يعود خائباً منهزماً. لا أريد أن أراه وهو يستلقي على الأرض ويتكور على نفسه بدون أن يخلع ملابسه. أمشي بدون هدف في حقول

مهملة قريبة من الحي الذي نقيم فيه، أو أتسكع في أزقة طويلة وساحات مغبرة. أردّد في نفسي وأنا أملأ يدي بالتراب او أخط على الأرض اشكالاً بعود متيبس او أقتلع العشب: سأجتهد كثيراً في الدراسة.. سأحفظ كل الدروس عن ظهر قلب.. وسأختار مهنة جيدة.. مهنة أجني منها أكياساً من المال.. أجمعها، ثم أحملها كلها إلى أبي على كرّيطة.. كرّيطة كاملة بحصانها استأجرها من السوق.. أركب بجانب الحوذي لأدله على الطريق.. وحين نصل الى البيت نكوّم الأكياس امام الباب.. تعود الكريطة الى السوق، أمّا أنا فأُنادي أبي.. واذا كان نائماً أوقظته فوراً أجرّه من يده الصغيرة ذات الأصابع النحيلة الى الخارج، ثم أقول له وأنا أُشير الى الأكياس انها لك كلها.. لا تعطني منها أي شيء.. خذها ولا تردّد..

يتوقف عادل عن الكلام. لا أتحرك خوفاً من ان يشعر بأنَّ اهتمامي به قد أخذ يتناقص، او انني قد بدأت انزعج متخلياً بذلك عما كنت أُقدّمه له من مساعدة معنوية يحتاجها في مثل ذلك الظرف الصعب. أظل جامداً في مكاني، لا أحيد عنه بنظري إلاَّ حين يقوم. أقوم بدوري، وأتوجه الى النافذة. أطل منها على الخارج، لكن الظلام الكثيف يحجب عنّي كل شيء. أعود إلى مكاني، وأتطلع في شرود الى الكتب المكوّمة في الركن. يتنقل عادل قليلاً في الغرفة راسماً بذراعيه حركات مختلفة للتخلّص مما أصاب جسده من خدر وخمول. وبعد وقت قصير يجلس في مكانه في وضع لا يشبه الوضع السابق. الظهر المستقيم مستند إلى الحائط. الساقان المضمومتان تطوقهما الذراعان، وأصابع اليدين متشابكة. أُفكّر فيما اذا كان قد آن الأوان لألمّح له بأنّني

أود العودة الى غرفتي، لكن عادل يضع حداً لتفكيري قاضياً على كل فرصة للقيام بذلك.

هو أيضاً أصابه وهم الهجرة يتابع بصوت متعب. ذات يوم أمر أُمّي بأن تحزم الضروري من الأمتعة وان تبيع دجاجاتها.. ثم هاجرنا.. تمَّ كل شيء بسرعة عجيبة كما لو أنّنا استعددنا لذلك منذ وقت طويل. فيما بعد، لما هاجرت بدوري بدأت أُدرك المعنى الحقيقي للهجرة، وصرت أؤمن بأنَّ الانسان لا يهاجر ليذهب الى مكان وانما ليهرب من مكان، وان ما فعله أبي لم يكن سوى هرب من الجريد.. من فقره، من أرباب عمله الذين يشكون في مردوديته بسبب قصره وهزاله، من الناس الذين يسمونه عمر النعجة استهزاء وتهكماً..

كان لأُمي في العاصمة قريب يقيم مع زوجته وأبنائه الخمسة في بيت صغير في الملاسين. تسمّيه ابن عمّي وتصرّ على ذلك.. لكن العلاقة التي تربطها به ليست سوى علاقة قرابة بعيدة بل غامضة اذ انها لم تكتسب إلى حد الآن في وعيي معنى دقيقاً وثابتاً.. رجل مهذّب، لكنه قاس متصلب الرأي مزهو بنفسه مثل كل المهاجرين الذين يعتقدون أنهم نجحوا. يتحدث كثيراً عن نفسه، ويلتذ بتقديم النصائح الى الآخرين. كان يحلو له ان يردّد امامنا أنه بدأ من الصفر، وانه لما غادر الجريد كان يملك من المال ما يكفي لإطعام عائلته يوماً واحداً فقط.

بعد وصولنا بيومين هيأ لنا ما يشبه الغرفة في مدخل البيت المسقوف بجانب مرحاض لا باب له، يحدها من جهة الفناء سياج مرتفع أقامه من ألواح رقيقة من الخشب، ثم أخرج من مخزنه صندوقاً خشبياً بواجهة بلورية أضيفت له عجلتا

دراجة. وقال لأبي: الآن يجب ان تعول على نفسك.. بع سجائر او علكة او حلوى او حمصاً مقلياً او روبافيكا او أمشاطاً او مرايا او ما تشاء من هذه الأشياء.. المهم ان تشرع في العمل وخصوصاً تعول على نفسك منذ الآن.. وتجنباً لأي سوء فهم نادى أُمّي ابنة عمه كما كان يسمّيها هو ايضاً، واختلى بها في غرفته ليقول لها انه يحبها كثيراً لكنه لا يستطيع ان يساعدها اكثر مما فعل، وانه قد قام بكل ما توجبه قواعد الضيافة مشيراً بوضوح كبير الى انه لم يعد منذ تلك اللحظات مسؤولاً عن أي شيء مما يمكن ان يحدث لنا.

الغريب في الأمر ان أبي لم يبدِ أي استياء من ذلك، بل أستطيع ان أقول انه كان فرحاً ومتحمساً لبدء حياة جديدة وعمل جديد يحبه على ما يبدو. وحتى أُمّي التي لم تعجب بالمكان الذي هيأه لنا ابن عمها في مدخل البيت تقبلت كل ذلك بكثير من التفهم..

وشرع أبي فوراً يعول على نفسه عملاً بنصيحة ابن عم زوجته.. بدأ بالملاسين.. هل تعرف الحي؟ في ذلك الوقت كان أبشع وأخطر مما هو عليه اليوم. بيوت صغيرة متلاصقة. حفر ووحل وغبار. عنف في الوجوه وفي الأزقة. ضجيج لا يتوقف. وأناس لا يشترون إلاّ القليل لأنهم لا يملكون إلاّ القليل. ينهض من النوم باكراً مثلما كان يفعل في الجريد. يملأ عربته بما اشتراه البارحة من حلوى وعلكة وسجائر، ثم يغادر البيت. يقضي اليوم كله متنقلاً من زقاق الى آخر، دافعاً عربته الصغيرة ببطء وحذر لتجنب الحفر والحجارة والمسامير، غير عابىء بما يتناهى اليه من تهكمات الذين نزحوا قبله بأعوام كثيرة وصاروا يعتبرون أنفسهم

بلديَّة يحق لهم أن يسخروا من لهجة هذا الجريدي الأعمى او هذا الزلاسي وكَّال الهندي بوحصرة.. فقراء لكنهم قساة.. ومن أشد كرهاً للفقراء من أمثالهم الفقراء؟.. والهجرة هنا كما النزوح هناك..

حين تغرب الشمس يعود بما استطاع شراؤه. يكدّسه على الحصير وسطنا، ويتطلع الى أُمّي ثم الينا بعينين تعكسان ذلك الفرح الذي كنت اراه حين يجلس أمامي لمراقبة شفتي وهما تنفتحان وتنغلقان. تجيئه أُمّي بالعشاء فيقبل عليه بعد ان يجر اليه المائدة حالما تضع امامه. يأكل بنهم مَن يشعر ان من حقه أن يأكل لأنه اشتغل، وقام بما كان يجب أن يقوم به.. ومن حين الى آخر يرفع رأسه ويحدّق في وجوهنا واحداً واحداً بجرأة مَن لا يخشى شيئاً، لا نقداً ولا لوماً ولا عتاباً لأنه تحمَّل مسؤوليته ووفَّر لنا ما كنا نحتاجه..

إلاَّ ان ذلك الفرح اختفى من وجه أبي بعد فترة قصيرة، وحلَّ محله اكتئاب يرافقه صمت شبيه بذلك الذي كان يلفه حين كنا في الجريد.. صحيح ان وضعنا تحسَّن قليلاً، واننا تمكّنا من استئجار غرفة حقيقية واسعة في دار كبيرة تقع في قلب الحفصية. لكن أبي أدرك انه لا يستطيع ان يحقق ما كان يحلم بتحقيقه، وان الطموحات والرغبات التي تتَّقد في ذلك الجسد القصير الهزيل لا تزال بعيدة. بعيدة مثلما كان الأمر في الجريد.. بعد حماس الأيام الأولى التي أثبت خلالها لنفسه ولنا انه قادر على العمل في مدينة كبيرة هو الذي كان يتهم بالعجز اكتشف شيئاً فشيئاً ان ما يبقى له من المال بعد دفع ايجار العربة لابن عم أمي الذي أخذ يطالب به بالحاح منذ ان استقر ابي في عمله كما يقول عملاً

بنصيحته وبفضل ما قدَّمه له من مساعدات يكفي بالكاد لإطعامنا.

كانت تلك هي المرة الأخيرة التي رأيته فيها فرحاً وفخوراً بنفسه. بعد أعوام كثيرة بدأ يخرج من صمته ويتخلّص من اكتئابه خصوصاً عندما أخذ نجاحي في الدراسة يتأكّد عاماً تلو عام. سلوكه تغيّر بشكل يوحي بأنَّ وطأة احساسه الدائم بأنَّه مسؤول عن حالتنا بدأت تخف، بل ويخيل إليّ أحياناً أنَّه أخذ يشبه أمي في قناعتها.. لكنّي متأكّد أنَّه لم يشعر أبداً طوال الأعوام التي عاشها فيما بعد بأنَّه فرح وفخور بنفسه...

يتراجع عادل بعد ان يسكت ملامساً برأسه الحائط، ثم يغمض عينيه. أقول في نفسي لو كنت مكانه لبكيت الآن. لكن عادل لا يبكي. يفتح عينيه ويصوّب إليّ نظرة توحي بأنَّه أراد ان يقول شيئاً تخلّى عنه فجأة. يتطلع حوله شارداً، ومن جديد يغمض عينيه قبل أن يضع عليهما يديه كما لو انه يريد ان يحتمي من الضوء. أطلّ من النافذة على الخارج فيواجهني الظلام كثيفاً كما في المرة الأولى. أنتبه وأنا ألتفت الى عادل إلى أنّني لم أقل له معزياً «البركة فيك». أتساءل طويلاً عمَّا اذا كان مجدياً أن أعزيه بعد انقضاء كل ذلك الوقت، ثم أُقرّر ألاَّ أفعل ذلك اذ ان التعازي والتهاني كما التحيات تفقد قيمتها اذا لم ترد في وقتها.. فجأة تستيقظ فيّ صور وأحاسيس وهواجس. أرى جنائز تتبعها كلاب وعجول سائبة. أرى نعوشاً ودجاجاً يقوقىء. رمل الطريق ساخن، والنعال ترتفع وتنخفض تاركة فيه ما يشبه الحفر. وأصوات منهكة متنافرة تردّد رحمان يا رحمان هذا عبدك. والجثث الرخوة المحمولة على الأكتاف تتحرك في أكفانها. تتبدى لي جبانة بوعرعارة التي يريد زوج اختي ان نذهب اليها للتفرج

على القبور الجديدة. أرى الشواهد الرخامية البيضاء والعبارات المنقوشة عليها. تغمده الله برحمته الواسعة وأسكنه فراديس جنانه.. أتوقف عند الكلمات طويلاً متأملاً للمرة الأولى معانيها الشائعة ثمَّ دلالاتها العميقة..

أتحرك في مكاني محدثاً قليلاً من الضجيج، لكن عادل يظل ساكناً في ذلك الوضع الذي يجعله شبيهاً بحيوان نائم. أناديه همساً عادل.. عادل.. وبعد لحظة أُكرّر النداء رافعاً قليلاً من صوتي، لكن عادل لا يرد لأنه استسلم للنوم. ينتابني انزعاج خفيف لأنّي لم أكن أتوقع ان أجد نفسي في مثل ذلك الموقف الذي بدا لي آنذاك غريباً رغم بساطته. أقوم وأتوجه الى عرمة الكتب أتناول المصحف وأتصفّحه قارئاً بدون تركيز ما تسقط عليه عيناي من آيات السور القصار.

أُعيد المصحف الى مكانه، ثم أنحني على عادل، وأناديه في محاولة أخيرة. يتحرك قليلاً برأسه لكنه لا يرفع يديه عن عينيه ولا يبدر منه ما يدل على أنَّه سمع ندائي. بدون تردُّد أتوجه نحو الباب. أفتحه ثم أغادر الغرفة..

طوال العامين اللذين تليا عودته لم ينقطع عادل عن مراسلتي. كان واضحاً انه يفضّل البطاقات البريدية على الرسائل الطويلة. بطاقات جميلة لا أزال احتفظ ببعضها تماماً كالدفتر الذي سجلت فيه أنواع التمور. أغلبها صور لمساجد وأضرحة ومقامات ومواقع أثرية مشهورة. جامع عقبة بن نافع. فسقية القيروان. قرطاج. سبيطلة. جامع الزيتون. مسرح اللجم الأثري. رباط سوسة. مقام أبي زمعة البلوى. مقام سيدي محرز. زاوية سيدي عمر عبادة..

في الأشهر الأولى كانت تصلني من تونس حيث يقيم مع أمه في شقة استأجرها فور عثوره على عمل كسكرتير في مكتب محام مشهور. في احداها يقول انه بدأ حياة جديدة.. حياة حقيقية لم يكن يحلم بها اطلاقاً حين كان مدفوناً في باريس داخل تلك الحفرة الواسعة، وان كل تلك الأحاسيس التي كانت تعذبه في استمرار اختفت نهائياً.. أمّي فرحة جداً بعودتي النهائية والاقامة معها خصوصاً بعد زواج اختي التوأمين.. الناس هنا بسطاء وطيّبون خلافاً لما كنت أتصور.. في بطاقة اخرى يقول: تونس مفاجأة رائعة بالنسبة لي.. كل يوم أكتشف ان هذا البلد الصغير جميل ومتنوع وثري.. الحياة هنا سهلة وبسيطة ولذيذة اذا عرفت كيف تستسلم لها.. وفي بطاقة ثالثة يتحدث بحماس عن مشاريعه.. أبحث عن شغل ثابت، شغل حقيقي أمارسه حتى سن التقاعد.. قبل أيام قليلة تقدمت بطلب الى وزارة التربية.. أريد أن أكون مدرساً.. وأنا مستعد للذهاب الى أي مكان أُعيَّن فيه.. المهم هو ان يكون لي شغل ثابت.. أريد ان اشتري شقة متواضعة في توزر او نفطة.. شقة من هذا النوع الذي تبيعه الدولة بالتسقيط.. لا بدَّ أيضاً أن أعثر على بنت حلال أتزوجها اذ انني الوحيد من بين كل أقاربي الذي لا يزال أعزب.. ثم ان أمي التي تشكو من العزلة تريد حفيداً يبرطع في البيت ويبول في حجرها كما تقول.. في باريس أضعت اعواماً كثيرة من عمري.. يجب ان أتدارك الأمر قبل فوات الأوان..

بعد توقف قصير أخذت استلم بطاقات مرسلة من توزر. كانت مثل بطاقاته السابقة.. اعجاب شديد بالجريد وسكانه، وتحمس لمهنة التدريس التي تمكَّن أخيراً من ممارستها بعد ان

عُيِّن في إحدى ثانويات توزر، ورغبة هائلة في بدء حياة جديدة.. عُدت الى المنبع يقول في إحدى البطاقات.. أمي ايضاً كانت تحلم بذلك.. لا تتصور كم هي فَرِحة الآن!. لا شيء في الدنيا أجمل وأعمق من ان تتنفس بعد غياب طويل الهواء الذي تنفسته وأنت طفل.. تعال اذا زرت تونس.. سأصطحبك إلى تمغزة والشبيكة لنسبح في مياه الشلالات.. وكل أنواع التمور التي كنت تردّد أسماءها وتسجلها في دفترك ستراها وتلمسها وتتذوقها ان شئت.. تعال.. ستفهم لماذا يسمّونها ترمة خادم وذكر احمار ونفاخ زبور وأصباع عروس..

في البداية كنت أرد على كل بطاقاته ليس لأن الفترة التي قضيناها معاً في باريس تفرض عليّ ذلك وإنّما لأني كنت أجد متعة حقيقية في تلك المراسلة. كنت أقبل عليها لأنها أعادتني بشكل ما إلى ماضٍ بدأ يبتعد عنّي في تلك الفترة.. كنت أيضاً أحب كلماته.. طريقته في الحديث عن أشياء لم يحدّثني عنها أحد بمثل تلك البساطة والعمق منذ زمن بعيد..

وفي العام الثاني أخذت اتباطأ في الرد. وفيما بعد بدأت أهمل بعض البطاقات كما لو أنّني لم أستلمها، ثم انقطعت تماماً عن الكتابة. فجأة بدا لي كل ذلك خاوياً، بلا معنى.. أحياناً أتذكّر عادل حين اغتسل في الصباح. أرى شاربه الذي لا يناسب وجهه، وترن في أذني قهقهته. أقول في نفسي لا شك أنّه تزوج امرأة أنجبت له طفلاً يبرطع في البيت ويبول في حجر جدّته اذا كانت لا تزال على قيد الحياة..

- 12 -

خواء هذا اللحم. خواء كله اذا كانت الروح منهكة مخرّقة مثل مرمى رصاص.

جرس الكنيسة يقرع من جديد، لكنّي لا أعيره اهتماماً على غير عادتي. أطفىء الضوء، وأقرّب الوسادة الى صدري. وفي ما يشبه الحلم أراها. الردفان مكومان على الركبتين والعينان مغمضتان والفم العريض مفتوح. أقول في نفسي كان لا بدَّ أن تبلغ الأمور ذروتها لكي ينتهي كل شيء.

لم تبدِ سعاد رغبة في الذهاب الى مطعم لتناول ثمار البحر كما في المرات السابقة ربَّما لأنَّ في الانتقال الى مكان عام، والجلوس الى طاولة وسط جمع من الناس والتهام تلك الدويبات ذات القرون والقوائم العجيبة التي تعتبرها الحاجة حضرية عقارب ودوداً وخنافس، شيئاً من الاحتفال والخفة بل والفرح لا يتناسب تماماً مع ما حدث في تلك الليلة.

إلاَّ ان ذلك لم يمنع سعاد من أن تعبّ ما تشاء من النبيذ. كالعادة شربت حتى سكرت. وكالعادة استلقت على الفراش مستندة برأسها إلى يديها المشبوكتين، وبدأت تتحدث لا عن ذلك الرجل القصير ذي البطن المكوّر الذي كان يحلم بأن يفض بكارتها ويمرغ رأسه في مؤخرتها، ولا عن ذلك الأب الذي تغيّر تماماً حين أخذت أنوثتها تفيض، ولا عن مجاز الباب وأرصفتها المتربة الموحلة التي يتناثر فوقها زبل الأبقار وروث الحمير والبغال، وانما عن أحداث وصور وانطباعات وأحاسيس اكثر ايغالاً في الزمن..

أول فستان اشتراه لي أبي كان من الكتّان تقول سعاد. لونه لا يختلف كثيراً عن هذا الأحمر الفاتح الذي نشاهده كثيراً في مجلات الموضة. الياقة وحواشي الكمين من الدنتيلا والحزام العريض ينزل الى ما تحت الركبتين. حين تربطه أمي تعقده عقدة واحدة فيتدلى كذيل طويل الى اسفل الركبتين. أتذكر ايضاً الدكان الذي اصطحبت اليه أبي لشراء الفستان. كان من أقدم دكاكين بيع الملابس في مجاز الباب. خلال زيارتي الأخيرة لتونس اكتشفت انه تحوّل الى دكان لبيع الكسكروتات والدجاج المصلي تغزوك روائح زيوته المحترقة وموسيقاه الصاخبة وضجيج رواده المولعين بأرباع الدجاج قبل خمسين متراً من الوصول اليه..

ربع دجاج.. تقول سعاد وهي تمد ذراعيها كاشفة عن جزء من أبطيها، ثم تتساءل بنبرة متهكمة هل تعرف بلداً في العالم يُباع فيه الدجاج المصلي بالربع باستثناء تونس؟ لم أكن واثقاً تماماً من ان ما تقوله صحيح، لكنّي أظل صامتاً. كان كل ما أرغب فيه وأريده في تلك اللحظات هو أن أنظر الى شفتيها وصدرها وخصوصاً أبطيها. تضحك سعاد، ثم تقهقه وهي تتطلع إليّ بعينين نصف مغمضتين من أثر السكر في محاولة لجرّي الى التهكم. أنحني قليلاً عليها، وأحاول ان أضحك لكنّي لا أستطيع لأن رائحة أنوثتها تملأ أنفي محدثة رعشة خفيفة في ظهري.

هل تدري في أية مناسبة اشترى لي أبي الفستان؟ تسألني سعاد بعد قليل من الصمت. أهز رأسي وأنا أتراجع الى الوراء بجذعي راسماً حركة تشير لا إلى أنّني أعرف الجواب وانما الى أنّي أنتظره بكثير من الاهتمام. زواج خالتي تواصل سعاد بصوت واطىء. نعم زواج خالتي التي لم أحدّثك عنها أبداً لأنّني أتجنب

الحديث عنها.. خالتي حدّة.. كنت أحبها مثلما أحب أمي. هي ايضاً تحبني كثيراً. كانت تريد طفلة تشبهني، مثلي تماماً. هكذا كانت تردّد أمام الجميع، لكن الموت لم يمهلها لكي تحقق أمنيتها، فبعد ثلاثة شهور من زواجها أصابها مرض أودى بحياتها بعد أيام قليلة. أمي تسمّيه مرض الخايب، لكنّي أميل الى أنه سرطان.

كنت قد بدأت أكبر (هل كنت في الخامسة أم السادسة؟) حين تزوجت خالتي حدة. ليلة الزواج لم يغمض لي جفن. كنت أنتظر بشوق هائل اللحظات التي سأنزع فيها ثياب النوم، وأنزلق بجسدي داخل ذلك الفستان. كنت متأكّدة تماماً من أنّه سيؤاتيني ويناسب شكل جسدي ولون بشرتي رغم انني لم أتمكن من قياسه، فقد رفض صاحب الدكان ان يخرج الفستان من الورق الصقيل الذي كان ملفوفاً داخله بإحكام لكي لا يدعكه. كل ما فعله هو أنّه فتح علبة الفستان وعرضها علينا. ولمّا لاحظ أنّ أبي متردد أخذ يردّد وهو يربت على كتفه: اطمئن.. هذا هو مقاسها.. أنا واثق تماماً من أنه سيؤاتيها..

وفعلاً كان الفستان متناسباً مع قامتي كما لو أنّه قد فُصِّل خصيصاً لي. حين لامس الكتان الناعم والدنتيلا البيضاء جسدي وغزتني رائحة القماش الجديد غمرني احساس لذيذ وغامض شبيه بما شعرت به حين أسلمت جسدي للمرة الأولى بعد سنوات عديدة لأصابع رجل. كل افراد العائلة وأقربائي أُعجبوا بالفستان ووجدوه ملائما للون بشرتي وقامتي المائلة الى الطول ولون شعري الأسود الفاحم. لا أدري لماذا كانت بعض العجائز يردّدن لأميء بإعجاب وزهو: ابنتك في هذا الفستان امرأة حقيقية. ربَّما

لأن الملامح الأنثوية لجسدي قد بدأت منذ ذلك الوقت تبرز بفضل الفستان.

كنت محط اهتمام وعناية الجميع. أبي يناديني بين وقت وآخر ليقبّلني قبل أن يُخْرِج من جيب سترته مشطا لتمشيط شعري. أمي تفك من حين لآخر عقدة الحزام لتعقده من جديد بشكل يبرز الخصر ورشاقة القوام او تستوي الياقة ممررة راحتي يديها بحنو على الدانتيلا. أمّا خالتي حدة فقد استحوذت عليّ حقاً منذ ان تصدّرت المنصة، ولم تسمح لأي شخص ان يفرّق بيننا. كانت فخورة بي وفرحة بعرسها وبجلوسي الى جوارها على المنصة. بعد موتها، يتبدّى لي بين وقت وآخر وجهها، وأرى عينيها الصغيرتين والفرح الذي يلتمع فيهما فيعتصرني ألم حاد، وتنتابني فورة من الانفعال والغضب. خلال الأعوام الأولى التي أعقبت موتها كنت لا أفهم وانا في تلك السن المبكرة لماذا تنتهي فجأة حياة عامرة وممتلئة مثل تلك التي كانت تعيشها خالتي حدة. كنت لا أفهم كيف انتصر الموت على امرأة مثلها..

تتوقف سعاد عن الكلام. تسند رأسها من جديد الى يديها المشبوكتين. أزداد اقتراباً منها، وأميل في اتجاهها متطلعاً الى عينيها نصف المغمضتين لكنّي لا أُلاحظ أي أثر للدموع. ولسبب غامض ينتابني إحساس خفيف بالفرح. تنزلق عيناي ببطء وحذر شديد الى ما فوق ركبتيها، إلاّ ان سعاد تقطع صمتها فجأة لتعيدني الى قصة خالتها حدة بنبرة توحي بأنّها قد استعادت تماسكها.

بمرور الزمن تعوّدت على غيابها. ومنذ ذلك الوقت أدركت معنى الموت. فهمت أن الذي يموت لن يعود أبداً خلافاً لما

كانت تردّده أمي. كنت لا أعرف لماذا، لكن حدسي كان يقول لي ان مَن يوضع في حفرة عميقة ويوارى عليه التراب لن يستطيع أن يعود أبداً. بعد أيام قليلة أدركت ان حدسي لم يخطىء، فقد قال لي زوج خالتي حدة الحقيقة التي كان لا يريد أن يقولها لي أحد..

طوال الوقت الذي أمضته خالتي حدة على المنصة كنت بجوارها. ولما حان وقت الدخلة رفضت أن أُفارقها. لم أفهم لماذا أراد فجأة كل الناس ان أبتعد عنها. أمي هي أول مَن حاول اقناعي بذلك. خالتك مرهقة.. تعالي معي.. لا بدَّ أن نتركها تستريح قليلاً.. هكذا كانت تردّد أمي بصوت أقرب الى الهمس. لكنَّني لم أقتنع. وبعد محاولات أخرى غير مجدية من الأقرباء والجيران تطوَّع أبي للقيام بتلك المهمة. في البداية حاول ان يغريني بوعود جميلة.. سأشتري لك فستاناً من الحرير يقول لي.. سأصطحبك الى بنزرت او تونس او الى طبرقة اذا شئت.. سأشتري لك سواراً مثل سوار خالتك.. كل تلك الوعود لم تدفعني الى تغيير موقفي. بغتة تغيَّرت لهجة أبي وصار يهدّدني.

في تلك اللحظة حدجتني خالتي بنظرة توحي بأنَّها قد قرَّرت ان تتدخل وهي العروس لتحسم الأمر. لم تقل شيئاً. فجأة دفعتني لتخلص نفسها ثم بحركة سريعة نهضت، وتبعت زوجها غير عابئة بنظراتي هي التي استحوذت عليّ منذ ان تصدّرت المنصة، ولم تسمح لأي شخص ان يفرّق بيننا حتى اللحظة التي حاولت فيها أمي اقناعي بالابتعاد عنها.

حالما دلفت الى الغرفة برفقة زوجها انغلق الباب بسرعة. وفي التو حدثت أشياء كثيرة دفعة واحدة. دق الدربوكة وصوت

المزود انقطعا والرجال القليلون الذين كان يُسمح لهم بمخالطة النساء انسحبوا الى شجرة التوت. أمَّا النساء اللاتي كنَّ يتحركن مثل خلية نحل حول منصة العروس فقد تحلقن حول أمي بعد أن توقفن عن الرقص واطلاق الزغاريد. كل الصخب الذي كان يهز المكان توقف ليحل محله صمت غريب يقطعه احياناً همس او صوت منخفض.

نسيت ما حدث لي على المنصة، وتلاشى الاحساس بالاهانة الذي ولدته في خالتي بحركتها المباغتة لتستولي عليّ حيرة كبيرة. ما الذي جعل الناس يفترقون او يجتمعون بهذا الشكل؟ لماذا انتهى العرس باختفاء العروسين؟ ثم لماذا كل هذا الصمت؟

وأنا في هذه الحيرة اذا بحركة شديدة حول الغرفة أعقبها صخب أعاد المكان إلى ما كان عليه قبل اختفاء العروسين. ارتفع دق الدربوكة وصوت المزود من جديد. وهزَّ المكان بغتة دوي طلقات نارية متتابعة. وتعالت الزغاريد من كل الجوانب. أمي كانت أكثر النساء تحمساً لما كان يحدث حولنا. كانت تحتضني بيدها اليسرى، وباليمنى تمسك بقميص أبيض تتوسطه لطخة عرفت فيما بعد انها لطخة دم..

طبعاً لم يقل لي أحد لمن هو ذلك القميص ولماذا هو ملطخ بالدم، لكنه ظلَّ حاضراً في ذهني مثل سر غامض غريب، ولم ينكشف أمره إلاَّ في بداية المراهقة حين أخذت أمي تحدّثني عمَّا يجب ان أعرفه كأنثى من هاك الشيء اللي من عند ربي كما كانت تقول. قبل أن أهرب من مجاز الباب كنت أروي لها ما كانت تقوله لي عن هاك الشيء حين أريد ان أمازحها. لا تتكلم

وتكتفي بأن تهز رأسها وهي تبتسم بشكل يوحي بأن كل ذلك لم يعد مهماً بالنسبة لها.

لم أعد اذكر جيداً اثر ذلك الموت المفاجىء على أمي، لكني متأكدة من انها تألمت كثيراً هي المرأة الرقيقة الحساسة التي أغمي عليها لما قلت لها أنّني سأهج هرباً من شبح ذلك الأب ومن مراهنات ذلك الرجل القصير. الشيء الوحيد الذي لم يستطع الزمن محوه أو حتى تعديله هو انها كانت تردّد بالحاح بدا لي فيما بعد غريباً ان خالتي ستعود. احياناً كنت أتساءل عمَّا اذا كانت أمي تردّد تلك العبارة، ليس عليّ لكي تواسيني، وانما على نفسها كما لو أنَّها تريد ان تقنعها بأن ذلك سيحدث فعلاً.

ثمة شيء آخر أتذكره جيداً كما لو انه وقع أمس، شيء لا يتعلق بأمي وانما بأبي ايضاً، وهو النوم بينهما في فراشهما في الأيام الأولى التي تلت موت خالتي. قبلها كنت أنام معهما في نفس الغرفة، لكن لوحدي على فراش حديدي صغير مركون في زاوية مقابلة تماماً لسريرهما. لا بدَّ ان خشيتهما من أن تنتابني الهواجس والمخاوف وأن أرى أحلاماً مزعجة أو كوابيس هي التي دفعتهما إلى اتخاذ ذلك القرار.

وكما في احدى المرات السابقة يخطر ببالي أن أقاطع سعاد لأقول لها ان ما ترويه يذكّرني بفترة قصيرة كنت خلالها أنا أيضاً أنام مع أبي وأمي في نفس الفراش، لكن ليس بينهما مثلها، وانما على طرفه. لم يكن الفراش سريراً، وانما مجرد حصير كبير تتراكم عليه مخدات وبطانيات وأكلمة عديدة. اما الفترة فهي تلك التي تلت مباشرة عملية ختاني. كانت أمي فخورة بي لأنّي لم أبك كثيراً حين قطع الطهار تلك الزائدة اللحمية التي لم أشعر في

أي يوم من الأيام انها زائدة بمقص ضخم قديم يشبه الجلم الذي يستعمل لجز صوف الأغنام. لم أُبنَّج طبعاً قبل عملية الختان، وبعدها لم يداو الجرح. كل ما فعلوه لي وأنا أبكي ألماً هو أنَّهم نثروا رماداً على عضوي، ثم لفوه بخرقة اقتطعت من ثوب بالٍ. كانت أمي حريصة ايضاً على أن أكون قريباً منها في تلك الفترة خصوصاً في الليل لتتمكن من خدمتي ومساعدتي كلما احتجت الى ذلك.

يشرد ذهني قليلاً، ثم أعود الى ما ترويه سعاد، لكنِّي لا أقول لها شيئاً كما في المرة السابقة. أنهض من مكاني، وأخطو بضع خطوات في الغرفة محركاً ذراعي. لا أدري لماذا أتساءل عمَّا اذا كانت ستفارقني قريباً. إلاَّ ان هذا التساؤل يتلاشى بسرعة من ذهني تاركاً المكان لإحساس غريب ينتابني للمرة الأولى، لكنه لم يدم طويلاً، فقد شعرت في تلك اللحظة ان سعاد صادقة حين تقول لي بين حين وآخر أنَّها تحبّني. اقترب من النافذة لأطل منها على الشارع. وحين أستعيد تماسكي أعود الى مكاني وأمد رأسي نحو سعاد مبدياً استعدادي للاصغاء اليها.

السرير مقترن في ذهني برائحة ابي، وتحديداً رائحة فمه. رائحة غريبة تشبه قليلاً رائحة القطران الذي كانت تُطلى به قرب الماء والجمال المصابة بالجرب، لكنها ليست كريهة.. بل أستطيع أن أقول انها طيِّبة وجذّابة الى حد ما.. غريب أمر هذه الذاكرة الآن وأنا أُحاول أن أصف تلك الرائحة أنتبه الى انها تشبه قليلاً رائحة الشاب الأندلسي الذي تعرَّفت عليه في قطار يعبر كاتلونيا متوجهاً إلى برشلونة.. ثمة روائح وألوان وأصوات شديدة التمير حتى انه من الصعب ان ننساها. يُخيّل الينا انها اندثرت

وأمحت نهائيا، لكنها تفاجئنا من جديد بحضورها..

تلك الرائحة من هذا النوع. كل يوم أستيقظ عليها، وهي أول ما يتسلل إليّ من هذا الخليط الحواسي الفاتر اللذيذ المبهم الذي يميّز يقظة الصباح.. يحدث ذلك قبل أن أفتح عيني. ولكي لا أفسد على نفسي تلك المتعة لا أتحرك. أظل متمددة على الفراش هامدة مغمضة العينين. بعد لحظة طويلة أميل قليلاً برأسي الى أبي فيتناهى اليّ تنفسه وهو يتردّد بانتظام وبحذر كبير ازداد اقتراباً منه، وألصق وجهي بأنفه. أقوم بكل تلك الحركات الصغيرة كل يوم بدقة وصرامة كما لو أنّي أؤدّي طقوساً لبدء نهار جديد. أوليها كل ما يمكن من الاهتمام، وأبذل فيها كل ما لدي من جهد ليس خوفاً من ان أوقظ أبي اذ ان نومه ثقيل كما يقول هو نفسه، وانما خوفاً من أن تتفطن أمي، التي أكون متيقنة في تلك اللحظات من انها قد استيقظت، إلى ما أقوم به. كنت لا أرغب اطلاقاً في ان تعرف انني أفقت من النوم لأنها ما ان تكتشف ذلك حتى تدس يدها بين فخذي وتشرع في ملامستهما، واضعة بذلك حداً لتلك المتعة. إلاّ ان أكثر ما كنت أخافه هو ان تكشف ما كنت أعتبره سرنا وهو كل ما يحدث لي ولأبي منذ أن تتسلل إليّ رائحة فمه الى اللحظة التي أستسلم فيها لأحاسيس مختلفة من النشوة والفرح والارتباك بعد ان ألصق وجهي بأنفه لكي أتلقى اكثر ما يمكن من ذلك التنفس..

كنت أدرك بشكل غامض ان أبي يعرف ذلك، وأنه متواطىء معي بطريقة ما. وكنت أريد ان تظل تلك الطقوس الصغيرة التي أدشن بها يومي سراً بيني وبينه، هو الذي يقص شعري ويقلم أظافري، ويختار لي ما ارتديه من ملابس، هو الذي كان يدلّلني

ويتباهى بجمالي أمام زملائه الندل في المطعم، ويشعر بالزهو حين يقولون له، بكثير من المبالغة دون شك: بعد أعوام ستكون ابنتك ملكة جمال تونس.. يسخر منهم في الظاهر، لكن الألق الذي في عينيه يدل على أنَّه قمة الفرح.

هل يعرف أنَّه لا بدَّ لطفلة مثلي ان تكبر قبل ان تصبح ملكة او أي شيء آخر من هذا القبيل؟ هل يعرف انه لا بد أن ينمو هذا الجسد، ان تستدير أشياء وتنتفخ أخرى وتفيض؟ أقول هذا لأنه يخيل لي حين أفكّر طويلاً فيما حدث له فيما بعد ان بلوغي فاجأه تماماً كما لو انه لم يكن يتوقعه اطلاقاً، كما لو انني أنتمي الى زمن ثابت بدون حركة، او كما لو انه كان يعتقد انني سأظل إلى الأبد تلك الطفلة الصغيرة التي لا اثر في جسدها لأي أنوثة جنسية..

بعد لحظات طويلة أستدير الى جهة أمي، وأفتح عيني. تندفع نحوي فوراً وتضمني إليها بقوة توحي بأنَّها انتظرت ذلك طويلاً. أنقاد اليها بسهولة دون أن أتكلم أو أقوم بأية حركة اذ أظل حتى بعد الابتعاد عن أبي وفتح عيني أسيرة تلك الأحاسيس اللذيذة والمربكة في آن واحد.

عندما أتخلص منها نهائياً، وأهجر عالم السرير وتلك الرائحة المقترنة به في ذهني تغزوني أحاسيس أخرى يولدها في صباح مجاز الباب.. على أية حال كل ما له علاقة بالصباح في تلك البلدة أحبه. واذا طلبت منِّي أن أذكر لك أجمل شيء في مجاز الباب باستثناء اسمها الذي اكتشفت انه جميل منذ ان هجرتها أقول دون تردُّد صباحاتها.. نعم صباحاتها.. أحبها بقدر ما أكره مساءاتها خصوصاً الصيفية منها التي تغرق أثناءها البلدة

في ضجيج غنائي وموسيقي غير متجانس يصم الآذان. في أغلب الدكاكين والمقاهي والمطاعم يفتحون الراديوهات والمسجلات على آخرها مستعينين أحياناً بمكبرات الصوت. يفعلون ذلك ليس لإجتذاب الزبائن فقط، وانما ايضاً لأنهم لا يستمتعون بالموسيقى او الأغاني إلاّ اذا كانت مرتفعة. ذلك الضجيج الحاد يعم كل الأمكنة الغارقة في أضواء باهرة منبعثة من قناديل ولمبات يعلقونها في المداخل وعلى الواجهات. أضواء ساطعة تسرق من الليل عتمته الجميلة، وحتى ضوء قمره اذ مَن يفكّر في القمر وسط تلك الأضواء الباهرة، ومَن بإمكانه ان يشاهده؟

في الصباح كل شيء هادىء او هكذا يبدو لي الآن من هنا.. العالم بطيء هش ساكن مثل عالم المستشفيات الذي حدّثتك عنه. رائحة الخبز. رائحة حطب يحترق. رائحة الأرض المبلّلة بالندى. رائحة الحليب. رائحة القهوة. رائحة البيض المقلي. رائحة البقول والثمار المكدّسة على عربات الباعة الجوّالين. رائحة الفطائر التي تكوّم بعد قليها على أطباق عريضة قبل ان يقبل على شرائها والتهامها زوار مجاز الباب من القرى المجاورة. رائحة الأوكالبتوس في الشوارع والساحات العامة والورد والياسمين في حدائق البيوت.

أقول في نفسي وانا أركز نظري على فم سعاد خوفاً من ان تظن أنَّني بدأت أمل حديثها انه لا فرق بين صباح مجاز الباب وصباح العلا. الهدوء ذاته. نفس البطء والهشاشة ونفس الروائح. لا اختلاف بينهما سوى أن الصباح في العلا يبتدىء بالبحث عن العقارب لتقتيلها، فطوال فصل الصيف وأحياناً قبل بدئه وبعد نهايته بأيام عديدة تتسلل كل ليلة هذه الدويبات

السامة السوداء والصفراء على حد السواء الى غرف النوم التي تفضلها على غيرها من الغرف، وتختبىء تحت الأسرة والطاولات والخزائن والكراسي وفي الزوايا لتقضي ليلتها هناك. أحياناً تختفي تحت المخدات والأغطية والحصر وتندس في الأحذية وجيوب السراويل والسترات وثنايا الفساتين والتنانير وفي كل ما هو مفتوح وجاهز من الصناديق والعلب والأواني التي نجدها في غرف النوم في الأرياف: الكؤوس، الفناجين، جرار الماء الصغيرة، طاسات الشرب، ابريق الشاي، ركوة القهوة، القوارير، علب الحلي، الصناديق التي تُحفظ فيها الوثائق والأوراق الرسمية، صناديق البومات الصور والتذكارات، أوعية الزينة الفخارية، القفاف، الحقائب، محافظ الأطفال..

وتتكاثر العقارب بشكل لافت في الليالي التي نتناول فيها بعد العشاء بطيخاً. حالما ننتهي من الأكل نجمّع القشور ونلقي بها بعيداً عن البيت، وأحياناً نودعها حفراً ثم نواريها التراب. إلاّ ان كل ذلك لا يجدي، فرائحة البطيخ التي تكون قوية بقدر ما يكون البطيخ لذيذاً لا تتلاشى بل تظل في الهواء وتجتذب العقارب بسرعة فتتسلل هذه الدويبات سراً إلى البيت. في تلك الليالي لا تختفي في غرف النوم فقط وانما ايضاً في الغرف الأخرى كغرفة خزن المؤونة والآلات والأدوات وغرفة السداية حيث تنسج الأكلمة والبرانيس وأغطية الصوف وفي المطبخ والمرحاض ان كان هناك مطبخ ومرحاض، لتقضي ليلتها في أماكن لا تخطر على البال: الطناجر، القصاع، المثارد، خوابي الزيت التي بقيت مفتوحة، سطل الوضوء في المرحاض، زنابيل

القمح الفارغة او الممتلئة، جزات الصوف، كبات النسيج، سلال الخضر، شرائح القديد، أكياس الفحم، الملاعق، المغارف، عناقيد الثوم او الفلفل الأحمر المجفّف، المقاطر، الأقماع، الأنابيب، سلال البذار، الأوعية التي تحفظ فيها التوابل، مواقد الفحم، المقالي، المشاوي، علب المسامير والبراغي والملاقط والكلابات والأجلام ومقصات تشذيب الأشجار..

هذا الهجوم الموسمي الذي تشنه العقارب على البيوت يثير الرعب في نفوس بعض الرجال والنساء فيهجرون الغرف طوال ليالي الصيف لينامو في الخارج. يتخلون أيضاً عن الحصر التي يفضلونها في ذلك الفصل الحار ويستبدلونها مكرهين بأسرَّة يضعونها وسط ساحات البيوت بعيداً عن الجدران وجذوع الأشجار والبراميل والسلالم وكل ما يمكن ان تتسلقه العقارب.

ولكي يناموا مطمئنين حقاً وفي مأمن تام من تلك الدويبات السامة عثروا على حل لقوائم السرير مصدر الخطر الوحيد المتبقّي، فهم يضعون كل قائمة في سطل او طاسة او قصعة مليئة بالماء لأنّهم يعرفون ان العقرب التي تحب الحرارة والرمل والجفاف لا تتقن السباحة، فبعد ان تتسلق جوانب تلك الأواني ثم تهبطها بسرعتها المعتادة متوجهة الى قوائم السرير يفاجئها الماء فتسقط فيه، وتظل تتخبط فيه وهي تضرب بشوكتها كل ما حولها بعنف. تبقى في المكان الذي سقطت فيه، فهي لا تستطيع أن تتقدم ولا ان تتراجع الى ان يطلع الصباح فتقتل شر قتلة دعساً بالنعال او حرقاً وأحياناً تقطيعاً لذيلها وقوائمها وكامل جسدها بشفرات حلاقة مستعملة.

إلاَّ ان كل هذا الحذر لا يفيد احياناً فالعقارب تتسلل في

أشد اللحظات حميمية وسرية الى أماكن لا ننتظرها فيها اطلاقاً. ذات ليلة قائظة خرج أحد الأقرباء لقضاء حاجته في الخلاء كما يفعل سكان الريف. اختار مكاناً هادئاً، واقعي مبالغاً على ما يبدو في الارتخاء والاقترب من الأرض. لم يكن قادراً على ان يميز بوضوح الأشياء المحيطة به لأن الظلام كان كثيفاً، لكنه لم يفكر بتاتاً في تلك اللحظات الحميمة ان خطراً ما يمكن أن يداهمه. لم يخطر على باله وهو مستسلم لتلك المتعة الصغيرة في خلاء يلفه ظلام مريح سري ملائم لتلك الحالة ان عضوه التناسلي الذي لم يصبه طوال حياته أي أذى يمكن ان يتعرض لخطر حقيقي في تلك اللحظات.

في البداية لم يعِ جيداً ما حدث له. كل ما شعر به هو أن شيئاً وخزه وخزة خفيفة في احدى خصيتيه. وفيما بعد أدرك بسرعة ان الوخزة ليست وخزة شوكة او شيئاً من هذا القبيل كما خُيِّل له، فقد تزامنت مع بدء انسكاب بوله على الرمل، بل بدا له ان ذلك الانسكاب هو الذي سببها. ثم أحسَّ بوجع أخذ يتزايد بشكل لا يحتمل. أشعل فوراً عود ثقاب فإذا به يرى عقرباً صفراء بين قدميه.. لحسن حظه كانت صغيرة.

لا أستطيع ان أقاوم الرغبة في الابتسام وأنا أتذكر تلك الحادثة التي صارت حكاية تُروى للتندر في العلا والدواوير المحيطة بها. قبل ان يحمل على حمار إلى أقرب مستشفى للمعالجة كان الرجال الذين التفوا به يسألونه عن الموضع الذي لسعته فيه العقرب، وكان هو يشير الى ما فوق الركبتين دون أن يحدِّد المكان خجلاً وحياء.

تسألني سعاد بصوت متراخ متعب عمَّا يدفعني إلى الابتسام؟

فأروي لها الحكاية. تحرّك شفتيها في ما يشبه الابتسامة، ولا تقول شيئاً. استوي في جلستي وأركّز نظري على وجهها استعداداً للإصغاء اليها من جديد، لكن سعاد تبدي فجأة اهتماماً بالحكاية، وتطلب منّي أن أرويها مرة ثانية. أستجيب لطلبها المفاجىء في التو، وأشرع في سرد الحادثة مركزاً على التفاصيل، وحالما أنتهي من ذلك تنفجر سعاد ضاحكة. وشيئاً فشيئاً يرتفع ضحكها فأنخرط بدوري في الضحك. بعد لحظة طويلة يتحول ضحكها الى قهقهات طبيعية في البداية، ثم متشنجة. قهقهات تمهّد كما الصمت في المرات السابقة لما سنستسلم له، لذلك النداء البدائي الذي يوجهه اللحم للحم.

يخفت صوتها ويتباطأ لكنّها لا تكف عن الضحك. فجأة تستدير وتنبطح على الفراش. وببطء ترفع قبالتي نصفها السفلي عارياً وهي تواصل ضحكها الذي لم يعد انذاك ضحكاً وإنّما صار صوتاً غريباً يشبه أنيناً خافتاً آتياً من بعيد. أنظر إليها طويلاً دون أن أقوم بأية حركة، ثم انهض وأنا أمسح العرق الذي بدأ يتصبّب من جبيني، وأتوجه إلى المطبخ. أعب ما أستطيع من الماء وأنحني على النافذة المفتوحة لأملأ رئتي بهواء الليل، ثم أعود الى سعاد.

- 13 -

لكن الزمن يراكم وطأته..

أقول في نفسي وأنا أُمرّر أصبعي على صفحة المفكرة. الزمن يمارس لعبته الرهيبة سراً. وحمودة يكتشف بعد أعوام ان هذه الدنيا القحبة لا تطاوعه كما يقول، وانها تفلت من بين يديه.

الطفل الآول كَبُرَ. والبنت التي قرَّر انجابها بعد توسلات حضرية وتشجيعاتها مستفيداً من فترة الحيوية والقوة التي مرَّت بها حويناته المنوية نمت مثل جذر طماطم. حدث ذلك فجأة، وفي غفلة منه ومن حضرية أيضاً.

كم هو سريع الزمن في هذه البلاد! تراب دقيق تسفوه الريح. خفيف وهش مثل أوراقها النقدية التي تطير من اليد بسرعة عجيبة كما لو انها مدفوعة بقوى سحرية. الأيام تمضي، وحمودة يرتبط أكثر فأكثر بما حوله والعودة النهائية التي ما انفك يرجئها اذ يطلع له في كل مرة سبب تزداد صعوبة الى درجة أنَّه أصبح يشعر كما لو انه وقع في فخ نُصِبَ له بإحكام. نعم، الهوارب التي يزورها لفترات قصيرة كل عامين لا تزال في القلب، ولكن كم تبدو له الآن بعيدة؟

إلاَّ ان حمودة الذي استطاع ان يتحكم في الأمور حتى ذلك الحين لم يترك اليأس يستولي عليه. فقد كان مقتنعاً بأنَّه سيحل ذات يوم مشكلة العودة كما تمكَّن من حل كل ما اعترضه من مشكلات. ظلَّ متفائلاً حتى في الفترات الصعبة. وحين يتذكر حمودة ذلك الآن يدرك جيداً ان سبب تفاؤله هو الحج، فلولاه لغرق وأغرق معه حضرية في يأس لا يدري الى أين كان سيؤدِّي بهما.

ما لم يكن يجرؤ على الحلم به، ان تطأ قدماه الأرض الطاهرة، تحقق، وبسهولة لم تكن تخطر على باله اطلاقاً. كل شيء بدأ بالصدفة في واحد من هذه المقاهي التي علمه جاره الباجي كيف يرتادها ويجلس فيها بدون أن يعرِّض نفسه للخطر وماله للتبذير. هناك اكتشف حمودة وهو يستمع الى أول حاج

يشاهده في فرنسا ان الحج الذي كان يبدو له دائماً، في الهوارب كما في فرنسا، شبيهاً بمعجزة لإرتفاع تكاليفه، الحج الذي لم يقدر عليه أحد حتى الآن لا في الهوارب ولا في غيرها من القرى المجاورة، هذا الحج هو في متناوله تماماً اذا عرف كيف يتدبّر الأمور. وحتى البطال فإنَّه باستطاعته ان يحقق هذه الأمنية العزيزة الغالية اذا أحسن التصرُّف في ما يتقاضاه من صندوق البطالة.

لم تصدق حضرية الخبر السار الذي زفَّه لها حمودة حالما تجاوز عتبة البيت. وبالرغم من كل التأكيدات فقد بقيت غير مقتنعة في قرارة نفسها. فهي لم تغير رأيها إلاَّ عندما عاد حمودة ذات يوم ببطاقتي سفر فتحهما ووضعهما على ركبتيها. تأملتهما برهة بعينين واسعتين لا تكاد ان تطرفان، ثم أخذت تحمد الله وتدعو بالخير لكل مَن سيمكّنها من أداء فريضة الحج، حمودة وحاج المقهى وشركة الأسفار وشركة الطيران وكل أولاد الحلال في هذه الدنيا.

لا تتذكر حضرية شيئاً مهماً في حياتها وحياة حمودة حصل بالسهولة التي جرى بها الحج. ربِّي سهّلها تقول في كل مرة تصف فيها الرحلة الى مكة والطواف بالكعبة والصلاة في المسجد الحرام التي تعادل مائة ألف صلاة فيما سواه من المساجد كما قيل لها والشعائر الأخرى كالوقوف في عرفات والسعي بين الصفا والمروة التي تحوَّلت الى حكاية متكاملة تقبل على روايتها بحماس وشيء من المتعة في الأعراس وحفلات الختان والفطام بل وفي مناسبات أخرى أقل أهمية.

أدرك حمودة وحضرية ذلك وهما لا يزالان في المطار. حالما وطأت أقدامهما أرض البهو الذي كان يغص بالمسافرين

استقبلهما ممثل وكالة الأسفار. وبعد ان استلم بطاقتيهما وجوازيهما قادهما الى مكان وسط البهو حيث يجلس حجاج آخرون. لم يفعلا أي شيء، فممثل الوكالة هو الذي حمل الحقيبتين الى كونتوار التسجيل، وقام بكل الاجراءات. لم يتخل عنهما وعن غيرهما من الحجاج فيما بعد. صعد معهم الى الطابق الأول، وانتظم معهم في الصف الطويل، ولم يسلمهم بطاقات ركوب الطائرة ويغادرهم إلاّ عندما اقتربوا من حاجز البوليس.

وفي الطائرة التي كان كل أفراد طاقمها فرنسيين وجدوا شخصاً آخر اختارته وكالة الأسفار من بين المسافرين وكلّفته بالاهتمام بهم طوال الرحلة. بعد الاقلاع بوقت قصير، وحالما انطفأت الاشارات الضوئية للإعلان عن انتهاء مدة ربط حزام الأمان والتوقف عن التدخين نهض فجأة من بين الركاب رجل طويل القامة ابيض البشرة يضع على عينيه نظارتين بإطار معدني، وأخذ يتكلم بصوت واضح وهو يدور ببطء حول نفسه لكي يراه ويسمعه الجميع. ترجم لهم كل ما قاله قائد الطاقم عن ظروف الرحلة والوقت الذي تستغرقه والطريق الذي تسلكه الطائرة ثم شرح لهم بدقة ما ينبغي ان يفعلوه ليكونوا في مأمن من كل خطر. وبعد ان أكّد لهم ان الطعام الذي سيوزع عليهم بعد وقت قصير خال تماماً من لحم الخنزير ومما يستخرج منه من أدهان وزيوت يمكن أن تستعمل في اعداد بعض المقبلات والسلاطات والأجبان والحلويات طمأن الذين لا يعرفون الكتابة والقراءة على أنّه سيملأ لهم بطاقات النزول. وقبل أن يعود الى مكانه دلهم على المكان الذي توجد فيه صدرة النجاة وأكياس التقيؤ والزر الذي يجب أن يضغطوا عليه ليتراجع مسند

المقعد الى الخلف اذا ارادوا ان يستريحوا قليلاً.

في تلك الطائرة، وبعد الانتهاء من تناول الطعام والاستسلام للراحة والهضم، في الوقت الذي ارتخت فيه الأجساد وانخفضت الأصوات وأصبحت الحركات بطيئة ثقيلة، وبالضبط في اللحظة التي تراجع فيها حمودة بعد ان أغمض عينيه ليسند رأسه إلى أعلى المقعد تذكّر حمى الشهوة التي أصابته حين عرف للمرة الأولى هذا الذي يسمُّونه الحب في الأغاني، وقرَّر ان يتوجه إلى الله في مكة طالباً غفرانه ورحمته.

لم يقل شيئاً لحضرية خوفاً من أن يفسد عليها استراحتها التي كانت في أشد الحاجة اليها بعد أن أكلت ما أكلت اذ وجدت كل ما قدّم لهم لذيذاً. وكان يخشى ايضاً ان يربكها ويشوش احساسها بالفرح الذي تملكها منذ صعودها الى الطائرة وخصوصاً منذ ان لاحظ حمودة الذي يتفطن دائماً إلى الأمور ان المقعد غير واسع لامرأة في صحة حضرية كما يقول مشيراً الى بدانتها، فرفع مسند الذراع الفاصل بين مقعديهما المتلاصقين متيحاً بذلك لجسدها امكانية تجاوز المساحة المسموح له بها.

في بلاد الحج التي شاهدت فيها حضرية خلايق ربِّي كلهم كما يحلو لها أن تردِّد في حكايتها تمَّ كل شيء كما يرام وبدون أية صعوبة حتى أنَّها أخذت تتساءل في قرارة نفسها عمَّا اذا كان الحجاج السابقون يبالغون عمداً خلال حديثهم عن شعائر الحج لمجرد التباهي كما لو ان ما قاموا به لا يقدر عليه إلاَّ قليلون.

حالما وصلوا استلمهم دليل ولد حلال ارتاح له حمودة وحضرية منذ الوهلة الأولى. وكان واضحاً انه هو ايضاً قد أحبهما. كان يبذل مجهوداً كبيراً لمساعدتهما. يشرح لهما كل ما

يجب ان يقوما به، ويجيب عن كل اسئلتهما، بل ويحاول في بعض الأحيان ان يكلمهما بلهجة تونسية مستعيناً بما تعلّمه من كلمات من حجاج تونسيين سابقين. الشيء الوحيد الذي بدا لهما غريباً حقاً هو انه كان يكحل عينيه مثل النساء. يفعل ذلك كل يوم، وبشكل واضح، فيكفي ان يدقّق الانسان نظره قليلاً في عينيه ليرى الكحل.

عندما يتحدث حمودة عن ذلك الحدث الذي أنقذه من السقوط في اليأس في فترة كان يحتاج فيها الى التماسك والصبر يبدي حماساً واضحاً ليوم الوقفة في عرفات ثم للرحلة الى مزدلفة وخصوصاً الليلة التي قضاها هناك. نَصَبَ ككل الحجاج خيمته الصغيرة في مكان خالٍ ونام مفترشاً الثرى. أحب كثيراً تلك البساطة وتلك المساواة المطلقة بين الحجاج التي ما كان ليتفطن اليها لو لم يحدثه عنها الدليل. كان فرحاً مثل طفل بالنوم في الخلاء داخل خيمة تتسع بالكاد لشخصين. لما فرغ من تهيئة كل شيء قرفص على التراب أمام مدخل الخيمة، وأخذ يتأمل السماء الصافية بنجومها القليلة. بين وقت وآخر يمد يده نحوهما كما لو أنه يود قطافها، فهو لم ير أبداً طوال حياته سماء أقرب من تلك السماء.

الغريب في الأمر ان ذلك الفرح تلاشى عندما دخل الخيمة واستلقى على ظهره وأغمض عينيه لينام. حلَّ محله حنين الى الهوارب مع احساس بكآبة خفيفة ولدته في نفسه صور وأحداث ومشاعر وانطباعات من ماضٍ بعيد لم يدرِ كيف انبجست وكيف تملكته بسرعة.

أمَّا حضرية التي تشير في كل مرة تروي فيها قصة حجها

الى ان كل المناسك نافعة للروح والبدن معاً فإنّها تفضّل على ما يبدو الطواف بالكعبة الذي لم يسبِّب لها أي ارهاق او تعب خلافاً لما كان يتوقّعه حمودة او الدليل الذي نصحها بأن تنال قسطاً وافراً من الراحة قبل الشروع في الطواف.

ثمة شيء آخر تتوقف عنده طويلاً وتتحدث عنه بحماس هو بئر زمزم الذي يشرب منه الحجاج ويتبركون بمائه. لم تنس حضرية أي شيء مما رواه لها الدليل عدة مرات استجابة لرغبتها. منذ المرة الأولى أعجبت اعجاباً شديداً بحكاية الطفل اسماعيل الذي أرهقه العطش فتركته أمه هاجر زوجة إبراهيم في المكان الذي يوجد فيه البئر اليوم، وأخذت تبحث له عن الماء وهي تركض كالمجنونة. يشتد حماسها حين تصف اسماعيل المسكين وهو يضرب الأرض برجليه الصغيرتين من شدة العطش في أرض قاحلة لا ماء فيها ولا زرع. وتلتمع عيناها ويبلغ الحماس ذروته عندما تصف عودة هاجر الى ابنها يائسة حزينة ثم مشهد الماء وهو ينبع من تحت قدمي اسماعيل.

في ذلك العام لم يلتزم حمودة بما رسمه لنفسه منذ سنوات عديدة، ولم يتقيد بذلك النظام الصارم كما كان يفعل دائماً. فبدلاً من ان يقضي أسابيع الفاكانس الثلاثة في باريس قرَّر ان يسافر الى الهوارب. لم يكن متحمساً لقضاء عطلته في تونس فضلاً ان ذلك يكسر ايقاع حياته ويكلفه مصاريف إضافية ويسبِّب له متاعب كثيرة. لكنه لم يستطع مقاومة رغبة حضرية في العودة للاحتفال بالحج كما جرت العادة في الأعوام الأخيرة.

أثارت الموضوع للمرة الأولى في الطائرة التي عادا فيها الى باريس. كانت تعرف جيداً ان حمودة لا يحب التظاهر بالتديُّن

الشديد والافتخار بأداء الفرائض والواجبات، ولا يقدر هؤلاء الذين يستغلون كل شيء وينتهزون كل فرصة للتباهي بالحج. وهو يحتقر اولئك الذين يذهبون بعيداً في ذلك فيستثمرون الحج ويوظفونه للحصول على بعض المكاسب او الامتيازات.

هي أيضاً تكره كل ذلك، بل وتعتبره حراماً. كانت دائماً حريصة حين تروي حكايتها عن الحج على ألاّ يتحول حماسها واحساسها بالفرح والمتعة الى افتخار او شيء من هذا القبيل. وعلى أية حال لم تكن ترى أي مبرِّر للتباهي، فهي تؤمن ايماناً عميقاً بأنَّ كل مثل هذه الأمور قضاء وقدر لا دخل فيها للانسان.

كل ما تقترحه على حمودة هو اقامة وليمة صغيرة يُدعى اليها أقاربها وبعض سكان الهوارب. هذا كل ما في الأمر. لا زغاريد ولا استقبال صاخب في المطار ولا موسيقى ولا موكب عودة من سيارات وشاحنات تعبر القرى والدواوير وهي تزمر لإثارة الانتباه كما يحدث غالباً. هكذا تنتقل البركة الى الهوارب بمجرد وطء أرضها ويتمكن سكانها من مشاهدة والتحدث طويلاً إلى شخصين يعودان لتوهما من الحرمين الشريفين.

لم يندم حمودة اطلاقاً على تلك العودة. وبالرغم من انه لم يستعد لها طويلاً مثلما كان يفعل في السابق فقد كانت من أجمل العودات بل ويخيل اليه احياناً انها أجملها على الاطلاق. قضى حمودة في الهوارب اياماً قليلة لن ينساها ابداً. ولأنه يقدر حضرية ولأنه أيضاً يحب الحق فقد كان يردِّد بوضوح على كل مَن يريد ان يسمعه ان كل الفضل يعود الى حضرية، وانه لولاها لحرم هو أولاً ثم سكان الهوارب من هذا اللقاء الذي لم يكن يتصور أبداً انه سيكون في مثل تلك الروعة.

طوال تلك الأيام لم ينقطع الزوار عن التوافد إلى البيت. يأتون من الهوارب ومن القرى والدواوير المجاورة، وفي كل الأوقات حتى في تلك التي يكون فيها المرء غير متحمس لمقابلة أحد لنهوضه في التو من النوم او استسلامه لقيلولة مفاجئة او انشغاله بأمور حميمية تستوجب الانفراد والتوحد.

لا يلحون في السؤال ولا يتبرمون. لا يبدون أي انزعاج او تضايق. بهدوء يجلسون على الأرض مستندين الى الجدار الواطىء في ساحة البيت، وينتظرون ظهور حمودة. في أغلب الأحيان لا يدوم انتظارهم وقتاً طويلاً فقد كان حمودة حريصاً قدر الامكان على ان ينهي بسرعة ما يكون بصدد القيام به، باستثناء النوم طبعاً الذي لا يتحكم فيه تماماً، للخروج الى الساحة واستقبال الزوار.

كان يدرك جيداً أنه ليس من حقه هو الذي حالفه الحظ لأداء فريضة الحج ألاَّ يلبِّي رغبة هؤلاء الناس في مقابلته والتحدُّث اليه وسؤاله عن بعض الأمور. كان على يقين من أن القليل الذي كان يقوله لهم يولد في أغلبهم خصوصاً العجائز منهم احساساً حقيقياً بالفرح، وكان يفرح بفرحهم. إلاَّ أنَّه يرفض في الوقت نفسه كل ما يمكن ان يحول تلك اللقاءات العفوية الى مناسبات للتأثير عليهم.

كان حذراً في سلوكه ومعاملته لهم، وشديد الحرص على ألاَّ يبدر منه اي شيء يوحي بأنَّه قد تغيّر بعد حجه. يسلِّم عليهم مثلما كان يسلم عليهم في السابق، ولا يرفع صوته وهو يبادلهم الحديث، ولا يقوم بحركات او اشارات تدل على أنَّه متضايق، ولا يرمقهم بنظرات تربكهم او تخيفهم او تفسد عليهم متعة

اللقاء. إلاَّ انه كان يبدي انزعاجه واستيائه حين يبالغ الناس في احترامه او الترحيب به. أمَّا بعض النساء اللاتي ذهبن أكثر من ذلك، مستفيدات من تقدمهن في السن، وأخذن يلامسن بحنو ورفق جبينه تبركاً ورحمة فقد وضع على الفور حداً لتصرفاتهن الغريبة بدون ان يعاملهن بقسوة. فقد كان متيقناً من انهن يفعلن ذلك لجهلهن وبساطة عقولهن كما يقول.

وحتى الوليمة الصغيرة التي اقترحتها حضرية ووافق عيها فقد أراد ان يلغيها. وبعد نقاش طويل مع الحاجة التي كانت متحمسة جدا لإقامتها خصوصاً بعد ان اختارات المدعوين وما ستعده من أطباق وافق عليها من جديد لكن بشرط قبلته حضرية في الفور، وهو ان تقيم اختها الوليمة في بيتها ويدعيان اليها مثل سائر المدعوين.

منذ ذلك الوقت أخذ الناس يطلقون عليه لقب الحاج حين يتحدثون اليه او يذكرونه في كلامهم. وبعد فترة قصيرة انتشر ذلك اللقب في الهوارب والقرى المجاورة كما في وسط الذين يلتقيهم في المقاهي في باريس بسرعة كبيرة الى درجة ان احداً لم يعد يناديه باسمه الحقيقي باستثناء حضرية، وهي لا تفعل ذلك إلاَّ أمام عدد محدود جداً من أقرب الناس اليهما، كما انها لا تنسى ابداً ان تنطق بـ «سي» قبل ذكر الاسم. اللحظات الوحيدة التي تسمح فيها لنفسها بأن تناديه حمودة هي تلك التي يستسلمان فيها للحميمية، فقد لاحظت انه كلما اقتربت منه في ذلك الوقت الذي لا يشبه أي وقت ازداد احساسه بالمتعة.

منذ ذلك الوقت ايضاً أخذت فترات البطالة تتكاثر، ثم بدأت تطول. ثلاثة أشهر. ستة أشهر. عام. وحمودة وحضرية

يتعجبان من هذه التغيرات المفاجئة ومن هذه التقلبات التي تحدث بسرعة هائلة. طبعاً كانا يعرفان ان كل ذلك محض صدفة، لكن أية صدفة هذه التي تراكم المصاعب في طريقهما في وقت يعتقدان فيه أنهما في مأمن منها؟

كان حمودة يعيد على حضرية بعض ما يتناهى اليه في المقاهي التي ازداد تردّده عليها منذ ان اخذت فترات البطالة تطول. احياناً يعيده تماماً كما سمعه. افلاس. انفلاسيون. مشاكل في كل بقاع الدنيا. كريز كبير ياسر. لكن حضرية التي بقيت هي ايضاً متفائلة لا تستطيع ألاَّ تقول شيئاً حين تسمع مثل هذا الكلام. ولأنها لا تفهم من كل ذلك إلاَّ القليل مما يتعلّق بالإفلاس فهي لا تريد ان تصدّق ان الانسان يمكن ان يفلس في هذه البلاد.

كيفاش يفلسوا؟ وين مشات ها الفلوس كلها؟ تتساءل في كل مرة بحماس واقتناع كما لو أنَّها تفعل ذلك للمرة الأولى. تسكت مركزة نظرها على حمودة في انتظار ان يرد عليها. لكن حمودة لا يجيبها، ليس لأنه لا يستمع اليها بانتباه او لأنه لا يعير سؤالها أي اهتمام، وانما لأنَّه قد سبق ان أجابها بوضوح لا يدع مجالاً للشك بأنَّه هو ايضاً عاجز تماماً عن ان يفهم كيف يفلس الناس في هذه البلاد، واذا كان ذلك يحدث حقاً كما يردّدون في المقاهي فما هي اذن البلاد التي لا يعرف ناسها الافلاس؟

لم يتأقلم حمودة بسهولة مع واقعه الجديد. كان يؤلمه كثيراً أن يرى نفسه عاطلاً عن العمل، بل انه كان يخجل من ذلك. كان لا يفهم هو الذي تعوّد على الحركة والنشاط كيف يستطيع الانسان أن يقضي نهاراً كاملاً بدون أن يفعل شيئاً. كان لا

يحتمل ان ينهض متأخراً من النوم او يمضي ساعات طويلة مستلقياً على الفراش يتأمل السقف او يستمع الى أغان لا يحق له ان يستمع إليها كما يقول، فالمشكلة كما يراها ليست مالية اذ ان ما يستلمه من تعويضات ومساعدات من مختلف الصناديق الاجتماعية يغطّي بما فيه الكفاية نفقاته التي لم تعد كثيرة بعد كل الذي أنجزه، وانما مشكلة نفسية.

وتدريجياً أخذ حمودة يتعود على ذلك مستعيناً بما لديه من حكمة وطاقة على الصبر والتفاؤل وان بدأ هذا التفاؤل الذي كان حريصاً عليه يمتزج بإحساس خفيف بالمرارة والفشل لا يراوده لحسن حظه إلاَّ في أوقات متباعدة. تغيَّرت حياته. وبدأت تنتظم وفق ايقاع سيحكمها حتى اليوم الذي عاد فيه الى الهوارب.

ينهض باكراً، ويتوضأ اذ أنَّه بدأ يصلّي بعد عودته من الحج بأشهر قليلة. يفعل ذلك على مهل وخصوصاً بأقل ما يمكن من الضجيج، فقد كان حريصاً على ألاَّ يوقظ حضرية التي لم تشرع في أداء فريضة الصلاة بانتظام إلاَّ قبل عودتها الى الهوارب بفترة قصيرة، لا لأنها ضعيفة الايمان او غير مقتنعة بفوائد هذه الفريضة وانما لأن ذلك يكلفها جهداً لم تكن قادرة عليه قبل ان تخفف وزنها.

وحالما ينتهي من ذلك يغادر الشقة، ويتوجه الى المسجد. فمنذ ان اكتشف انه يوجد بالقرب من بيته مكان منزو يقع في شارع صغير قليل الحركة، مكان لا يلفت شكله الخارجي الانتباه ولا يتسع إلاَّ لعدد قليل من المصلين، يسمُّونه مسجد عمر صار حريصاً على ان يتردّد عليه ليصلي فيه مع الآخرين اكثر ما يمكن من الصلوات.

إلاَّ أنَّ ذلك لم يكن ممكناً في كل يوم لأسباب مختلفة كأن يذهب الى ادارة الشرطة لتجديد أوراقه او يرافق حضرية الى الطبيب او ينشغل في المقهى بأمر يهمه. ويعترف حمودة الذي لا يحب الكذب في مثل هذه الأشياء انه لا يذهب احياناً الى المسجد لأنه كان يرغب في البقاء مع حضرية او ليستمع الى الراديو أو لأنه كان يود ان يظل متمدداً في فراشه الدافىء.

وبدلاً من ان يتوجه بعد الصلاة الى أماكن الشغل مثلما كان يفعل في ايام العز كما يقول صار يتردّد كل يوم على مؤسسات الانتريم في حيه والأحياء القريبة بحثاً عن اشغال صغيرة تحرك الدم والروح ايضاً. هناك يمضي ساعات طويلة منتظراً أن ينادى على اسمه اذا كان حقاً محظوظاً. لكن ذلك لا يحدث إلاَّ نادراً.

وبالرغم من انه يعرف جيداً ان عروض الشغل تتم خلال الساعة الأولى وأحياناً قبل اكتمالها فإنَّه لا يغادر المؤسسة، فمَن يدري، ربما تحتاج شركة بناء او شيء من هذا القبيل الى شخص ينوب لبضع ساعات عن عامل انكسرت رجله اثر سقوطه من صقالة شديدة الارتفاع او أرغمه ارهاق مفاجىء على التوقف عن الشغل والركون الى الراحة او تلقّي نبأ وفاة شخص عزيز عليه مما اضطره الى التخلّي فوراً عن عمله. كل شيء جائز في هذه الدنيا يردّد حمودة لنفسه كما لو انه يريد ان يقنعها.

وعلى أي حال فإنَّه لن يخسر شيئاً اذا بقي في المؤسسة مستمتعاً بالدفء الذي يشيعه جهاز التدفئة شتاء وبالبرودة المنبعثة من مكيفات الهواء صيفاً. كان يكره التردُّد على المقاهي في مثل ذلك الوقت، ولا يذهب ايضاً الى المسجد لأنه لا صلاة قبل الظهر، اما مجرد التفكير في العودة الى البيت حين تكون حضرية

مستغرقة في إعداد الغداء وسط أبخرة تتصاعد من طناجرها وقدورها وأباريقها المستقرة على المواقد فإنَّه يعذبه حقاً.

يختار حمودة دائماً المكان الذي يجلس فيه اذ انه يكون غالباً من بين الأوائل الذين يدخلون قاعة الانتظار بعد ان تفتح المؤسسة أبوابها ان لم يكن اولهم على الاطلاق. مكان بارز لا يحجبه عمود او حاجز. مكان غير منزو وغير بعيد عن المكتب الذي يستقبل فيه الباحثون عن شغل. يجلس مستقيماً ماداً عنقه مركّزاً نظره على السكرتيرات استعداداً للقيام بكل ما يمكن ان يطلب منه. في البداية كان حريصاً على ان يبتسم لكل سكرتيرة تنظر اليه معتقداً ان هذا النوع من النساء يرتاح لذلك، وفيما بعد توقف عن الابتسام وان ظلَّ لطيفاً ومهذباً، فقد اكتشف ان أغلب السكرتيرات خصوصاً اصغرهن سناً وأجملهن يقابلن ابتساماته بنظرات باردة تشي باللامبالاة بل وحتى بقليل من الاحتقار.

وعندما ينطفىء الضوء في قاعة الانتظار، وتشرع السكرتيرات في فتح حقائبهن اليدوية وطلي شفاههن بالأحمر او تسريح شعورهن او التطلّع الى وجوههن في المرآة يفقد حمودة كل امل في ان يشتغل ولو لبضع ساعات في ذلك اليوم. ينهض، ويرفع يده مودعاً غير مبال بالسكرتيرات اللاتي لا يردّدن عادة على تحيته، ثم يتوجه الى الباب للخروج.

وخلافاً لما كان يفعله في فترة العز وحتى في الأيام القليلة التي يتمكن من العثور فيها على شغل في تلك السنوات فإنَّه لا يعود بسرعة الى البيت، وانما يتباطأ كثيراً في الطريق. يتوقف طويلاً أمام واجهات الدكاكين او يتجول في الأسواق الشعبية او يجلس على المقاعد الخشبية المنتشرة على الأرصفة للتفرج على

المارة والسيارات العابرة والأشجار الضخمة التي تمتد أغصانها الى نوافذ وشرفات العمارات المجاورة والحمام الرمادي اللون الذي يقترب دون خوف من المقاعد بحثاً عمَّا اعتاد ان يجده من فتات خبز او كعك.

وبعد الغداء الذي لا يستغرق تناوله برفقة حضرية او بدونها سوى وقت قصير لأنه لم يعد يوفر له إلاَّ القليل مما كان يوفره له من متع، يتمدّد على الفراش الذي تعده له حضرية في الصالون، فقد كان شديد الحرص على أن تتم عملية الهضم في ظروف جيدة.

احياناً يغلبه النوم الذي لا يود ان يستسلم له في مثل ذلك الوقت في تلك الفترة لأنه يفاقم الأحاسيس الموجعة التي تولدها في نفسه البطالة، ولأنه ايضاً يشخر اكثر بكثير مما يفعل في الليل. وبالرغم من ان نومه لا يستغرق إلاَّ دقائق قليلة فإنَّه يستيقظ متوتراً مرتبكاً مشوش الذهن عكر المزاج. ولأنه يخشى ان يقول او يفعل ما قد يسيىء به الى حضرية فيندم عليه فيما بعد ندماً شديداً يعمق تلك الأحاسيس الموجعة اذ ان الحاجة التي عول عليها كثيراً وساعدته في أمور مهمة وفي فترات حاسمة لم تتغير لا في سلوكها ولا في أقوالها ولا في عنايتها به ولا حتى في استجابتها السريعة لممارسة ذلك الشيء، لأنه يخشى كل ذلك يغادر حمودة البيت فوراً.

يتوجه الى المسجد حيث يصلّي العصر ثم المغرب فيتلاشى ارتباكه ويعود الى هدوئه. ثم يذهب الى المقهى حيث يلتقي رجالاً مثله يؤكّدون له ان ما يحدث له يحدث للجميع. هناك يستعيد حكمته وقدرته على الصبر وتفاؤله الذي كان حريصاً عليه.

وهناك يراوده من جديد الأمل في العثور على شغل، فيستعد لما سيقوم به من بحث في اليوم التالي.

الشيء الوحيد الذي لم يستطع ان يتغلب عليه ويتخلص منه ولو لوقت قصير في تلك السنوات هو ما يستحوذ على ذهنه حين يكون على وشك النوم. فحالما يضع رأسه على المخدة ويغمض عينيه يتبدى له رأس ابنته المنغرس في الزفت الساخن ثم يتذكر الاشاعات العجيبة التي كانت تروّج حول ابنه ووقائع أخرى من حياة لم تعد تشبهه ولم يعد يشبهها.

ـ 14 ـ

مرة أخرى يقرع جرس الكنيسة. أتساءل لوقت قصير عمَّا اذا كانت الدقة التي تناهت الى سمعي هي الأولى. ببطء شديد أحرك ساقي للتخلّص مما أصابهما من خدر وتنمُّل، ثم أتراجع مسنداً ظهري الى المخدة. وفيما أحاول ان أستعيد ما بقي في الذاكرة من حلم عجيب لم أرَ فيه سوى فراريج أمي غير مقيّدة القوائم هذه المرة والدويبات البحرية ذات القرون التي تحبها سعاد أنتبه الى ان المفكرة ليست على الطاولة كما كنت أظن، وانما على الفراش تحتي تماماً. كانت مفتوحة على الصفحة التي سجّل فيها اسم حمودة، وأغلب أوراقها مدعوكة. أتناولها بحذر، وقبل أن أغلقها أُمرِّر أصابعي برفق على صفحاتها لأُسوِّي ما أصابها من تجعد واندعاك.

أنقل نظري في أرجاء الغرفة كأنّي أراها للمرة الأولى. ألوان النباتات الموزعة على الورق الذي يكسو الجدران تتراءى لي وانا في تلك الحال باهتة كما لو انها فقدت شيئاً من توهجها

ونصاعتها بعد ان مرّ عليها جزء من الليل أغرقها لوقت طويل في كثافة ظلامه. إلاّ ان ما يثير انتباهي حقاً هو انها تبدو لي أقل تنافراً من قبل، بل أكثر من ذلك تنطوي على شيء لا أستطيع تحديده يؤالف بينها.

ازداد تراجعاً ضاغطاً بكل ما لدي من قوة على المخدة بعد ان أسندها الى الجدار قريباً من التلفون الذي يتدلّى خيطه. وفيما أتطلع الى الخزانة الواطئة يقابلني وجهي في المرآة. وجه رمادي جامد حاد الملامح كأنّه منحوتة من طين. بسرعة أميل برأسي بسبب هذا الاحساس الغريب الذي يتملكني فجأة. الخوف من أن أرى الوجه الذي كنت مولعاً برؤيته في المرايا ممتزج بإحساس بالخجل.

وللتخلص من هذا الخوف الذي يربكني حقاً أجر جسدي، ثم أنحني قليلاً ناظراً بدون اهتمام الى ما تحت السرير الذي لا ينقطع صريره. تقع عيناي على طبقة الغبار التي كنت قد نسيتها تماماً، فيخطر ببالي كما في المرة السابقة ان أنبه المغربية التي تأتي كل يوم لتنظيف الغرفة الى وجودها، لكنّي سرعان ما أتذكر أنّني قرّرت ألا أفعل ذلك، وأن أترك الغبار حيث هو الآن. فمَن يدري، أقول في نفسي لعل حشرات الليل، حشرات من نوع غريب لا نعرفه ولا يخطر وجوده على بالنا تقتات منه.

أعود إلى وضعي السابق، ثم أطفىء الضوء وأغمض عيني. أرى حمودة جالساً قريباً من باب مكتب السكرتيرات، مستقيم الظهر، ماداً عنقه كطائر ضخم، استعداداً للقيام بكل ما يمكن أن يُطلب منه. أرى حضرية تخبط بيدها السمينة البضة ركبتها المنتفخة وهي تتحدث مندهشة عن دويبات البحر التي تسمّيها دوداً

وعقارب. وحين أفتحهما أنتبه إلى ان الأشياء المحيطة بي قد بدأت تخرج من الظلام وتزداد وضوحاً. تماماً مثلما تتسلل، أقول في نفسي، ملامح الوجوه من السواد خلال عملية تحميض.

اترك الفراش وقد انتابني قليل من الحماس حتى من الفرح بما يحدث للأشياء حولي. كلما دققت فيها النظر بدت لي اكثر وضوحاً، ألامس الطاولة والكرسي. ألامس الصنبور والمغسل المرمري. باستطاعتي ان أرى شقوقه الكبيرة وبعض ما تناثر على الخزانة من براغ ومسامير.

والذي يزيد في حماسي وفرحي هو أنَّني لا أشعر بأي تعب. جسدي أحس به قوياً صلباً متماسكاً. أحس به خفيفاً ايضاً، جافاً ومرتوياً في آن واحد. لا شك ان الغفوة التي رأيت خلالها فراريج أمي قد مكَّنته من أن يستعيد شيئاً من الحيوية، وشحنته بما كان يحتاج اليه من القوة.

أتوجه الى النافذة، وأفتحها. وتماماً كما في المرة السابقة أمد رأسي الى الخارج. روائح الأطعمة وخصوصاً البطاطا المقلية والمرغيز لا تزال هناك. مستقرة في قلب العتمة، عالقة بالفضاء. وقوية كما كانت. وهدير السيارات والدراجات النارية تناقص الى حد كبير. الأصوات البشرية وضحكات نساء الليل ايضاً خفَّت كثيراً، بفعل السكر والارهاق والثرثرة، وربما حمى الجنس أقول في نفسي. أمَّا قبة السماء التي كانت تبدو لي من النافذة مثل غطاء صوفي أسود ثقيل مستدير الأطراف فقد صارت الآن اكثر تميزاً، واستعادت هيئتها الطبيعية بما تسلل اليها من ضوء النهار القادم.

حين أعود الى الفراش تتملكني فجأة رغبة في استخدام

التلفون. رغبة عجيبة مباغتة من هذا النوع الذي لا نملك إلاَّ ان نستسلم اليه. لا أهتم بالمفكرة وما تحتويه من أسماء وارقام. أتناول السماعة بحركة سريعة، وبدون أي تفكير أشرع في ادارة القرص. وخلافاً لما كنت أتوقع لا أنتظر كثيراً يتناهى لي صوت أعرف فوراً من لكنته أنه لأجنبي. مثلي أقول في نفسي. الو.. الو.. مَن على الخط؟.. أقرّب السماعة قدر الامكان الى أذني، وأنزلق بجسدي في الفراش دون أن أقول شيئاً. في الواقع ليس لدي ما أقوله اذ ماذا يمكن أن يقول انسان مثلي في ذلك الوقت لشخص لا يعرفه؟

وبسرعة تتغير النبرة، وتنهال الشتائم ليس رغبة في الايلام او الثأر او التشفي، وانما خوفاً غريزياً او احتماء من خطر محتمل. يا ابن القحبة.. ابن الكلب.. ابحث على من ينيكك.. أغلق الخط، وأعيد السماعة الى مكانها، ثم أزداد انزلاقاً في الفراش.

للمؤلف

مدن الرجل المهاجر (قصص) الدار العربية للكتاب. تونس 1977.

امرأة الساعات الأربع (قصص) دار الآفاق الجديدة. بيروت 1986.

جبل العنز (رواية) المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت 1988.

صورة بدوي ميت (رواية) المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت 1990.

متاهة الرمل (رواية) المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت 1994.

حفر دافئة (رواية) المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت 1999.

حفر دافئة

لكن الزمن يراكم وطأته . . .

أقول في نفسي وأنا أمرر أصبعي على صفحة المفكرة . «الزمن يمارس لعبته سراً» . وحمودة يكتشف أن هذه الدنيا القحبة لا تطاوعه كما يقول ، وأنها تفلت من بين يديه . الطفل الأول كبر . والبنت التي قرر إنجابها بعد توسلات حضرية وتشجيعاتها مستفيداً من فترة الحيوية ، والقوة التي مرت بها حويناته المنوية الكسولة نمت مثل جذر طماطم .

كم هو سريع الزمن في هذه البلاد ! تراب تسفوه الريح . خفيف وهش مثل أوراقها النقدية التي تطير من اليد بسرعة عجيبة كما لو انها مدفوعة بقوى سحرية . الأيام تمضي . والهوارب التي يزورها لفترات قصيرة كل عامين لا تزال في القلب . ولكن كم تبدو له الآن بعيدة !

منشورات 99
حرية الكلمة
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

BIBLIOTHEQUES DE LA VILLE DE PARIS
3 2272 05090 604 6